بقايا ندم

غسان كامل ونوس

قصص

بقايا ندم

«قصص»

غسان كامل ونوس

الطبعة الأولى ٢٠١٤

عدد النسخ: ٥٠٠ نسخة

القياس: ١٤×٢١

تصميم الغلاف: سنان غسان ونوس

لوحة الغلاف: الفنان محمد سلامة حمود

الإخراج الفني: مازن الشيخ علي

إصدار: دار الهندسة والأدب للنشر والطباعة والتوزيع

سورية - صافيتا

هاتف: 043-805158

خلوي: 0933802693

Eng.Lit.House@gmail.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله، بأي شكل من الأشكال من دون إذن مسبق من الناشر.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إلى
عزيز كان
عزيز يكون

وردة آخر الوقت

تستطيع الوردة أن تعيد الأشياء التي أَوَّلُها أنت، وآخرُها؛ أمّا متونُها، فأسُّها أنت أيضاً!

كلّ وقتٍ لهفة، وكلّ لهفةٍ توق، ونبض، ووقت.. وأنت الحرص لم يستجدّ، والولع يتجدّد. أُعاينُها، أتفحصّ بتلاتِها، وِعاءها.. مخافة أن تكون كائنات عابثة أخرىٰ قد وصلت إليها، حتّىٰ لو كانت حشرات أو خيوطاً عنكبوتية..

لم يعد شيء بعيداً أو قريباً. فقدت المعايير معانيها، ولم يعد مفرشُنا الأبعدُ عن الأيدي العابثة في مأمن، كما كنّا نظنّ؛ الشرفة التي ضمّتْنا في خيالنا قبل أن

تصبح واقعاً تحقّقَ زمناً، لم أعد أدري كيف يمكن إدراجه في عتبات الخلود، لولا هذه الوردة التي تعيد ترتيب الأشياء والأوقات والوقائع.. كأنّك حاضر!!

كنتَ تقول: سنزرع مشاتل منها.

وقلتُ: أخشى أن تملّها وتملّني!!

- ألم تكنّ خياري، كما كنتِ؟!

- وستبقى؟!

- هذا يعود إلى حسن الاهتمام.

- بي أو بك؟!

- بها!! وتضحك.

لم تكن تحبّ الأوراد كثيراً؛ كنتَ تعلن، وتختلف مع والدتك التي تحرص على أن تكون مشتلة الورد حيّةً رغم شحّ المياه.. تعاتبك: أنا من يؤمّن المياه، لا أنت.

- ولكن تعبكِ يهمّني!

فتقول لك بما يشبه البوح: أنا أقوم بما يُفرجُ الصدر، ويُنعش الروح؛ أحبّ هذا العمل، فلا يهمّني تعبه.. «حتّى لو كان انتظاراً على تقطّر عين الماء التي لا تجود دائماً..» تتابع في سرّك!

وقد اشتهيت لكِ هذه الوردة، كما اشتهتْها أمّي!!

*

في أثناء اتّصالك ذاك أخفيتُ دمعة وراء ضحكة، كنتَ تستطيع أن تسمع وقعها؛ أمّا الدمعة فبقيتْ أصداؤها لي، كما وَرْدَتِكَ الآن:

- كم تحتاج الوردة إلى الماء؟!

- أية وردة؟!

- زرعتُ وردة في موقعنا الجديد.

كنت سأسأل عن موقعك الجديد، منذ متىٰ أنت هناك، إلىٰ متىٰ..؟! وكنت أعرف أنّك لن تجيب، وربّما لا تعرف الكثير من الإجابات. فقلتُ بحذر متذاكٍ: وهل تستطيع تأمين الماء لك، قبل أن تؤمّنه للوردة؟! قلتَ:

- «أنا أقوم بما يفرج الصدر، وينعش الروح؛ أنا أحبّ هذا العمل، فلا يهمّني تعبه»، ويذكّرني بمن هو عزيز!!

لا أُنكر أني تعكّرت في البداية، أستسمحك، لتصوّري أنّك تقصد كائناً آخر، وحبست مشاعري: «حتّىٰ لو كان ذلك، فهي أمّه، وتسأل عنه بلهفة مثلي..»؛ لكنّني ظلمتك، أعترف، قبل أن تضيف ما لم أتبيّنْه تماماً، لتشويشٍ لئيم، أم لغشاوة تسادلت في الجهات، لكنّني أحسست أنّ تلك الإضافة تستطيع أن تأسرني لوقت طويل؛ لكنّني لم أتوقّع أن طوله سيمتدّ هذا المقدار كله!!

تمنيتُ وقتئذ أن أسألك إن كنت في موقع متقدّم أو متأخّر، مأهول أم موحش؛ لكنّني لم أفعل؛ ليس لأنّك ربما لن تجيب؛ بل ربّما لأنّه لا معنى لمثل تلك الأقوال، والمسميّات، والتوصيفات، مثلما صار السؤال إن كان المرء في مأمن، حتّى لو كان عابراً، أو في بروج مشيّدة، غير واقعيّ أو منطقيّ!

في كلّ إطلالة يتفحّصها قلبي، قبل أن تتحسّسها يداي، دائرةً حول أصيصها الملوّن، وليس النبض المتسارع خوفاً على نفسي ممّا يمكن أن يحدث، من دون أن أنكر تشبّثي بالحياة.. من أجلها: ولديك/ ولدينا، اللذين لا يكفّان عن الأسئلة الموجعة، وأكفّ عن الإجابة الأشدّ إيلاماً.. لأتحرّق في اكتواء مكتوم!!

لم أكن بهذا الحرص يوماً، وكنتَ حذراً، علَّمَتْكَ مهنتُك ذلك، وكنتَ تردّد ما كان يلحّ في بالك من جرّاء الدروس الكثيرة التي تلقّيتَها، وعلّمْتَها لمن

التحق من المتدرّبين: «غلطتُك الأولى هي الأخيرة!!»

وأقول: «من مأمنهِ يُؤتَى الحذِر!»

كنت تضحك قبل أن يظلّنا سقف واحد، وتحاول الاقتراب أكثر ممّا يسمح به الظرف، حين أقول: أنسيت.. «غلطتك الأولى هي الأخيرة!»

وكنت أضحك في لقاءاتنا الحميمة، فتنزعج قبل أن أسأل: ما لأصابعك تتحرّك، كأنّك تتحسّس صاعقاً أو تفكّك عبوة؟!

فيسبق فعلُك القولَ: سأنقضّ لينفجر فيّ، وأتلذّذ أكثر!

*

نظر زميلك إلى الشرفة المكتسية أوراداً صفراء من الفصيلة التي تحبّ -كنتَ تحبّ- وأحبّ، فاضت مشاعره التي رأت الكثير ممّا يجعل الأعصاب تتجلّد، والأحاسيس تبترد:

– كنّا نضحك منه، يسارع إلى زراعتها في أيّ مكان نحلُّ فيه، ولم نكن نمكث طويلاً، كان يقول:

– هذه الوردة تعويذتي التي أحسّ معها بالراحة والأمان؛ إنّها مأمني!

فنقول له: «من مَأمنِهِ يُؤتَى الحَذِر!»

وأستعيد ما رواه، حين داهمتْ مقراً للمسلّحين، بعد طول ترصّد وتصبّر، واستغاثات من سكّان تلك الحارة التي كانت آمنة:

«كنّا نتابع آثارهم القاتمة، ونفكّك ما زرعوه من أفخاخ وعبوات، لم يكن ما يفاجِئ بعد كلّ ذلك الإنجاز. توقّف لحظة مستثاراً، وأشار إلى أصيص من بين أوعية ورد متنوّعة: ما ألطف ذوقهم! واستدرك قبل أن أعلّق: السكّان لا المجرمون! وهرع إلى وردته، فابتسمتُ.. رغم أنّ الجوّ كئيب وكظيم، وصرختُ به منبّهاً بخفوت، بخشوع تحسّسها؛ فنحن نعلم أنّ كلّ شيء يمكن أن يكون

مصدر خطر، رغم بُعدِ التوقّع وغرابته..!».

توقّف زميلك الذي لم يبلّ تماماً من إصابته، خوفاً على مشاعري ربّما، وغرق في الشرود والكآبة، وغرقتُ في تصوّرٍ يخصّني:

هل همستْ لك تلك الوردة بشيء؟! ضحكتْ، فانقضضتَ عليها؛ أم هي من اجتاحتك بعد اشتياق ولوعة، ويا له من فعل! كنت أخجل أن أقوم به، رغم رغبتي واشتياقي، بعد أن صرتَ تغيب طويلاً، ولم نعتدْ على غيابك؛ كنتُ أقول لكَ ذلك، فتهزّ رأسك، قبل أن تنقضّ، وربّما بعده، وتقول: عليكم أن تتعوّدوا، حاولوا، تشاغلوا، وانشغلوا..

أهمس الآن لوردتنا، وأعترف بصعوبة ذلك، وأحاول، تخفيفاً عن الولدين، ولكنّ.. من يخفّف عنّي سوى «كثرة الباكين على إخوانهم»؟!

❊ ❊ ❊

طواف..

لم تَستشِرْني خطاي، ولم ألتفت، أو أَسأل..

الأوصاف التي ستنهال عليّ، والدعوات.. لا تهمّني، لم تعد تهمّ؛ فهل هناك بعدُ من عقل قابل للتنبّه والاتّعاظ، أو مسمع؟!

لا أعبأ بالمطر، ولا تهمّ الخطا المبتلّة، ولا النظرات التي تترصّدني من الأبواب وزجاج النوافذ المزروعة على الطريق الطويلة إليك، رغم الجنون الكانونيّ الذي قد يتمادى..

مقفرة كانت؛ لا بيوت ولا نظّارة.. سوى بعض الرعاة الذين تُمكن محايلة أوقاتهم المألوفة؛ ضيّقاً كان

الدرب إلى المزار العتيق وموحشاً، لولا قامتك أو طيفك، أو انتظارك..

الشجر الكثيف الذي يتوِّج الجزء الأكبر من المسار، كان كفيلاً بأن يجعل الداخل إلى ظلاله آمناً. لكنّه دليل اليقين بأنّ من قَصدَ الغياب المتكرّر في محرابه ليس بريئاً، حتّى لو حلف أغلظ الأيمان؛ فكيف إذا لم يكن وحيداً؟!

ما لقامتي تتثنّى، ولساقيّ تعرجان، رغم عرض الطريق واستوائها؟!

حين كانت الآلة العملاقة تجتاح الشجيرات والأشواك، وتدهم الحجارة والتّلال الكلسية المزمنة، كنتَ مبتهجاً، تضحك من حزني؛ كان مشروعَك وسعيَك ورؤاك: «لا بدّ من مسار واضح واتّجاه معلن، واتّساع يسمح لمن يريد..».

كان ضرورياً حقاً، قلتُ ذلك، حين كانت الجموع تسير بك، ويغصّ بها على سعته، والفضاء

يكاد يختنق بالضجيج والانفعال، وكنتُ أجرجر كياني في مسلَكٍ أضيق، وحواشٍ واخزة.. من دون أن أحسّ بالخدوش والتهشّم؛ فالجرح أعمق، والصّدوع والولوع!

*

«لحكمةٍ ما لمْ يحدث»، قلتَ ذات لقاء نادر لاحق عابر؛ كنتَ تقتنع بما ترسمه الأقدار؛ فما الحكمة ممّا حدث ويحدث في شغاف البلاد وصدور الناس؟!

عفواً، لا أريد إزعاجك، كما كنتَ تحتدّ؛ ولا أريد الكفر بما تظنّه لا يُردّ. لكنّ هل يسّبتُ الفكر، وتتجمّد المشاعر، وتتبلّد الأحاسيس؟! ما الذي يتبقّى إذن؟!

*

دروب المدرسة الأقرب لم تكن تكفي، ورفقة السيارات في المدرسة الأبعد، لا تُشبع..

كان لا بدّ من أوقات أخرىٰ نقدّرها ونقضيها، ولحكمة ما.. لم تكتمل. لم تكن ساذجاً كجميل، ولا متعِباً كابن أبي ربيعة، وكنّا نتبادل الحديث حولهما نصوصاً وموضوعات، نتّفق أو نختلف، لا يهمّ، لم يعد يهمّ؛ وما بينهما مسافة تطول وتقصر، وما بيننا ينضغط وينفلت، ويمتدّ بلا توقّف، لحكمة ما.. ربّما!

❊

لم يكن قرارك أو قراري؛ بل القضاء مرة أخرىٰ؛ لا سبيل إلىٰ إكمال الحلم، والوصول إلىٰ ما بين النجوم.. إلا بقطفها وتزايدها علىٰ كتفيك!

الحاجة أو الطموح، السرعة في الوصول، القوّة التي تُكتنَزُ وتُتَطلّبُ، القيادة التي تستهوي.. تلك التي تطيعها الأقدار، أو تلبّيها؛ لماذا لم تستجبْ لي، لتوقي، وأمانيّ؟! لا.. ربّما تكون قد استجابت، فلم

أدعُ لك إلا بما تحبّ، وتضرّعت أن يكون لك ما تريد!

أتراني كنت الأبعدَ عن مدار رغباتك، فتهتُ بين الجاذبيّات، ولم تستشعِرني؟! أم كنتُ قريبة أكثر ممّا ينبغي، فغبتُ في الثقب الأسود؟!

*

لأمرٍ ما لم تكتمل الحكاية.. إلا الآن؛ ليتها لم تكتمل، على هذه الصورة على الأقلّ!

ولكن.. هل صحيح أنّها اكتملت؟!

قد يكون ذلك صحيحاً بالنّسبة إليك، بعد طموح وجموح، وتصعيد ورحابة، وامتداد لم يرقَ للكثيرين، فكان ما كان!

لم يفعلوها هم، هذا صحيح.. ربّما؛ لكنّهم لم يحرصوا على الجوهرة كما ينبغي، فألقوها إلى

التهلكة! أم أنّها حماستك وحميّتك واندفاعك.. لم تترك أمامك فرصة للتفكير في التخويض بين الأنياب اجتثاثاً.. «لا شيء يفيد سوى ذلك»، كنت تقول، ولم يستمع إليك أحد؛ كأنّي أراك في السفح الغربيّ، بهمّتك المعهودة تمتدّ إلى الأشواك، تقتلعها، مهما كانت قاسية. «لا ينفع معها التشذيب. كان يمكن أن يكون الأمر أقلّ كارثية قبل الآن!» لكنّ التأخّر يحدث دائماً: المماطلة، التسويف، الاستهانة، الإهمال.. كنت تقول؛ «لا نحسّ بحدّتها وخطورتها إلّا بعد أن تستشرس»!

وقد فكّرتَ بلا شكّ: «لن يكون القضاءُ في الأيدي الآثمة، ولا القدرُ رهنَ الأفكار الشريرة»؛ فلا يمكن أن ترضى بذلك، أو أرضى، ولا بالحكم المبرم الذي يجاهرون به ويُسِرّون، بلا أيّ مسوّغات مقبولة أو منطق، أو يقوم بذلك سواهم في القريب والبعيد!!

تجربة لم تكتمل لحكمة ما -ربّما- ؛ أوافقك..

وتجربة أخرىٰ..

لم يكن أقلَّ منك اندفاعاً، ولا جموحاً.. لكنّ الاتجاه مختلف، ولم يكن ممكناً أن أخالف القضاء الرياضيّ، وأجمع المتوازِيَيْن!!

لا أنكرُ أنّي بُهرتُ بإمكانياته، وساعدني في ذلك انقياد النّاس إليه، والتمسّح بأجواخه، والتّعالي بأخباره، أمّا أخبارك فقد غابت، أو كادت، وكنتُ - ها أنا أعترفُ، ولا وقت للنّدم- أحاول أن لا أتسقّطها، كي أتخلّص من طاقتك الجابذة مِنّ علىٰ البُعد!

وأعترف، في حضرة طيفك كما أحسّ، أنّ ذلك كان عصيّاً!!

أتعرِفُ..؟! كان قراري ذاك بالتخلّي عن كامل حقوقي المقدّمة والمؤخّرة لديه، أسهل من أيّ قرار

آخر؛ رغم أنّ كأسي كان يمكن أن يُمتَلأ حتّىٰ بلبن العصفور..!!

أتعرف؟! أحسّ ببعض الاعتزاز، بأنّي لم أكن مخطئة؛ فها أنت الصيد الثمين، أمّا نَدُّكَ، منْ حاول أن يكون ذلك حتّىٰ في امتلاكي، وتعكير مشارب الخَلق، وشحذ الحدود المسمومة جوار القلب، فهو يمشي في الأرض مَرَحَاً.. ما يزال!!

لستُ وحدي من يعتقد بهذا؛ فالكثيرون يقدّرون قيمتك، إنّهم يفاخرون بالتخلّص منك، وفي أكثر من موقع واتّجاه!

فهل هذا ما يواسي؟! ويجعلني أشعر بهمّة ضافية، وفيضٍ وانتشار؟!

وهل يلاحظ الآخرون ذلك؟! وهل هذا في صالحي، أو من حقّي؟!

ربما كنتُ أنانيّة حين جاهرتُ بخسارتي؛ هناك من

هم أقرب إليكَ صلة، بَواكٍ أُخَر لهم فَقْدُهم أيضاً ومشاعرهم، ولا أرضى أن أؤذيها؛ لهم اهتمام الناس، وميزات، وإرث لا يندثر، ولهم أوقاتهم مع طيفك وذكراك!

لكنّ لي الأوقاتَ كلَّها، وقد بتّ وحيدة، بعد تجربة أخرى لم تكتمل..

سأترك أيّام العطل والمناسبات، ربّما يهتمّون بك في أثنائها، ثمّ ينشغلون عنك، كي تستمرّ الحياة؛ ويتركون لي بقيّة العمر، أطوف.. في الطّريق منك إليك!!

❊❊❊

وَجدتُها!

لم أكن أظنّ أنّني سأتّهم مهنتي «الإنسانيّة» بكلّ هذا القدر من المرارة، لولا أن كانت سبباً في الدّخول إلى هذا العنبر، بعد ما أفقدت المعاينة الخارجية وعيَ عدد من الذين جاؤوا للتعرّف إلى أقربائهم؛ فكيف إذا ما تطلّب الأمر البحث عن علامة فارقة لم تترمّد، أو تَضِعْ في فجوة غائرة، وباتت تحتاج إلى إعادة نسب العضو الذي يمكن أن يوجد منبتّاً عن الكيان الأصل؟! ليست المرّة الأولى الّتي أتعامل فيها مع الجسد الآدميّ؛ سنوات عديدة مرّت، لا يكاد يخلو يوم فيها من تفحّصٍ وتقرٍّ، وجراحة ربّما؛ لكنّني لم أحسّ قبل الآن بما ينتابني تجاهه، هو الموئل الحاضن

للعقل الذي يمنحنا لقبه، وميدان الشعورِ، وملكاتِ المعرفة التي تسمو به، ويحتفي بها في سعيه لإعلاء مستوى التّجربة البشريّة، الّتي يبدو أنّها تنحدر إلى لا مستقرّ لها في عالمٍ أسفل!!

الدّم ليس دماً، واللّحم افتقد الشكل والطّراوة والرّائحة، ولا العظم متماسك، ولا المعالم المميّزة لهذا الكائن، الذي تشكّلَ على مثال الصّورة الأعلى، ظاهرة..

فكيف أبحث عن وحمة كامدة في كتلة متفحّمة؟! وأين أجد سنّاً مكسورة في هيكل بلا فكّ أو رأس؟! وكيف أتلمّس ملامح آدميّة في كومة تتزايد وتتكاثف مع مرور الوقت؟!

❊

لم يكن الوقت الذي مرّ عليّ الكثير من انضغاطه في عمليّات لا تعدّ، بمثل هذا الضّيق، مع الفارق

الذي لا يُحَدّ بين من يسابق من أجل الإبقاء على الحياة، ومن يجهد للعثور على ما يؤكّد الموت، و«ما في الموت شكّ» لمن كان واقفاً مثلك، ولم يكن الرّدى نائماً، فيما أشياء كثيرة كانت -وما تزال- منوّمة في أماكن وكائنات.

كان على واحد منّا أن يضحّي، وبالغتَ في ذلك؛ لم يكن بالإمكان أن ندرس جميعاً، ولم يكن أمامك، لإفساح المجال أمام من تلاك، إلّا أن تتعلّق بأوّل سلسلة رواتب، ومورد متّصل. لكن لم أكن أتوقّع أنّك ستمنحنا كلّ هذا العزّ أيضاً، هذا اللّقب الذي سنحمله من بعدك أيضاً.

لم أقتنع بعد أنّني أريد التأكّد من غيابك الأبدي؛ هل أقول موتك؟! أأنت مَيِّتٌ حقّاً؟! لا أكاد أصدّق. وعلى الرّغم من أنّك كنتَ على ثقة من أنّ هذا سيحدث، لم تنلْ من صوتك الذي وصلنا بعد غياب رجفةٌ أو رعشة.. مع قرب نفاد الذّخيرة،

وانقطاع أسباب الحياة، وتضاؤل سبل الإنقاذ إلى ما يشبه فرصة العثور على ما يثبت وجودك هنا، من دون أن أملّ البحث عنك للمرّة الأخيرة.

لم أكن لأصدّق أنّ الموت أهون ربّما من سواه؛ تقول أمّ: آهٍ.. لو لم يعد ابني حقّاً، لو لم أره على هذه الهيئة، بعد أن عجزت كلّ الخبرات عن إعادة إحدى فتحاته إلى حالة مقبولة!

وقال أب: لو أنّها ماتت، بدل أن تعود بلا علامات أنثى!

وندبت أمّ أخرى، ووجم أبٌ آخر، وتشاكى أخوة وجيران...

الموت أهون، بتُّ أقتنع بذلك، بعد ما رأيت، وعاينت، ودقّقت، وحاولت.. وبعد ما وصلني من تهديد ووعيد؛ قد لا أجد بعده من يستطيع البحث المضني!!

أكاد أضيع، كما الوقت الذي يتضاغط أكثر بلا جدوىٰ. أصوات تلحّ قربي، وأخرىٰ تدقّ أعصابي، وتضجّ في رأسي وفي الخارج القريب، مع عدد متداخل من العلامات التي حُمِّلْتُ كي ألاحظها، وأساعدهم في اكتشاف أعزائهم! أكاد أعيىٰ لولا كثرة السائلين حولي، والمنتظرين، والسّاعين إلىٰ عودة مظفّرة بخبر أو شاهد؛ يا لسخرية الظّروف والمواقف والأقدار.. يا أخي!!

ربّما تقول الآن: حتّىٰ علىٰ الموت لا أنجو من الحسد؛ لأنّني أقول: ليهنِك، رغم أنّك لم تكن من بدأها، وقد لا أكون منتهاها!!

قلتَ ذات اتّصال: أما سمعت بما حصل لزملائنا، في أكثر من مكان؟!

وكان في نبرتك بعض الأسىٰ.

وقلتُ، وفي رأيي الكثير من الثّقة والتّفاؤل والحزم: كان الأمر عارضاً، لا يمكن أن يتكرّر!

وبعد محاولات واتّصال.. كانت النّبرة أخفّ، وباتت ثقتي موضعَ شكّ، أحاول ألّا أظهره، وفيها رغبة بالحسم ورجاء. ولم يغب التفاؤل، الذي لم أحاول البحث في أسبابه، لأنّ لي مع حدسي أكثر من نجاح!!

*

على الرّغم من أنّ الوقت الذي يضيق، كان لاذعاً، خلال الأشهر التي مرّت بفصولها الضبابيّة الكالحة، كانت الأسئلة حارقة أكثر!!

صارت الإجابات تضيع في لجّة البحث عن متّكأ؛ فالمسلّمات، والمفهومات الأساسيّة، والمسائل الكبرى، والغايات العظمى.. لا خلاف عليها، أو لا كبير اختلاف، سوى على بعض الأولوّيات.. ربّما؛ افتراق التّفاصيل والتّداعيات الصغرى ستخلق دوّامات تكبر، وصدوعاً كارثيّة، لا تغيب

عن متتبّع لمّاح، أو حتّىٰ إنسان عادي مجرّب!

لماذا الـ هُمِّ، والـ نَحنُ، وهذه الأنساب الغريبة والفرق العديدة، والحواجز والثقوب والخنادق؟! ولماذا أصحاب المهن المدرّة، والشهادات أيضاً؟! ولماذا هذا التّجاوب البشريّ القطيعيّ مع دعوات بهيميّة؟!

كان يقول: لعلّ أفضل إجابة أن نتجنّب مصارعة الثّيران، أو الخوض في حوار الطّرشان، وأن تُترك الأمور لمن عليه أن يقوم بالواجب، وقد جاء موعده، ولبّىٰ أخي نداءه!

كثير من الإجابات كان يتناهبه: هتافات نافرة وفتاوىٰ حارّة، أو ضجيج معمّىٰ، وفوضى منظمة، تلبيّة لإشارات عابرة للبحار والقفار والحواسّ والأفكار!!

❊

لم يعد لديّ الكثير من الطّاقة، لم يبق الكثير من الوعي، لأتقبّل وجودك هنا، أو أقتنع بأنّ بقاياك قد تكون في عرمة أخرىٰ، أو عنبر آخر، أو حفرة ضائعة، أو مجرىٰ مهجور؛ لم يعد لديّ الكثير من المنطق لألحّ في البحث عن قشّة مفارقة في بيدر؛ القشّة التي قصمت ظهري؛ وهل كنتُ بعيراً؟! ما زلتُ، أم أنّني لم أزل مقتنعاً بما كان يجب أن يكون؟! لم أنهَرْ، لم أستسلم، لم أتّقد، ولم أُغوَ، رغم كلّ الشعارات المحبّبة والعبارات العذِبة، والضغوط الليّنة والقارسة.. لست بعيراً، ولن أضلّل نفسي باختيار قطعة لا دليل فيها، أو ما تبقّىٰ من قامة قد لا يسأل عنها أحد، لأخرج محموماً، وأصرخ مأخوذاً: وجدتُها.. وجدتُها!!

❊ ❊ ❊

صيّاد!

الجرف المتناتئ ذاته، والتجاويف عينها.. ولستَ حافياً.

الإطلالة ما تزال، والمشهد تغيّر!

والشعور كذلك؛ الخوف والمتعة والصّدىٰ..

الهضبة الّتي تحمل القرية الأخرىٰ ما تزال تحتَكَ؛ البيوت تلوّنتْ، وتناثرتْ، الدّروب الضيّقة توسّعتْ، وتبدّلتْ مواقعها، أشجار الصّيد تقطّعتْ، والخطو الوئيد تسارعَ بآلياتٍ فرديّة وجماعيّة، بدلاً من ارتهان لدوابّ منفردة أو قطيعيّة.

ما زال خطوك متباطئاً فوق حوافّ الجرف،

ليس تعلّقاً بمفردات المشهد الطّالع من واد يضيق بخضرته، وشجيراته تحاصر الدرب الوحيدة التي كانت، لكنّه الآن يتّسع لعدد من البيوت المميّزة والأراضي المسوّرة، والطّرق الأوسع..

*

«لو كان بن فرناس هنا، لكانت محاولته الأولى للطّيران لاقت نجاحاً أكبر، لعلوِّ هذا الجرف وحدِّته وامتداده». يضحك بخفوت من حماسته التي دفعته في الاجتماع الأوّل للمنظّمة الحزبيّة في القرية المقابلة تلك، أن يقترح بثقة إقامة جسر بين القريتين، تيمّناً بالجسر المعلّق بين آسيا وأوربا في استنبول! «وقد وعد الأمين برفع الاقتراح إلى الجهات العليا! وفي اجتماع آخر، وبعد حماسة الأمين واندفاعه في إبراز أهمّيّة النقد الذاتي، ألححتُ على أن توجّه إليّ العقوبة المناسبة؛ لأنّي تغيّبت عن الاجتماع الماضي بعذر مشروع تمّ

قبوله؛ فقد كان يمكنني أن أتحامل على مرضي، في سبيل حضور الاجتماع!»

يتلفت حوله، يباعد في نظره، ويزفر: «التّعب كان يتعب قبل أن ينال من الجسد الجادّ، الذي ستكون الإطلالة هذه فوزاً مقدّراً، أو سيكون الوصول إلى عصافير تجتذبها العناقيد الملقاة بفوضى فوق السنديان هناك، وأشجار التّين الموزّعة على الهضبة، وعصفورات أخرى في درب العين التي تنخفض درجات.. كما كانت الدّرب ذاتها مسرى الخطو الأسبوعيّ المناضل!

لم يكن للتّعب معنى، ولا للقنوط، رغم الجعبة الخاوية في مختلف الجبهات. لم يكن من التفكير بالمصير بدّ، أو التأمّل والسعي انشغالاً وحماسة.».

*

المكان مُطِلٌ أيضاً، والسّفح منحدر، والدّرَجات

بالعشرات، تلك المؤدّية إلى مسكنٍ يكاد يضيع بين الدّور؛ تتنابت على عجل، وتنتشر بلا قيد أو رخصة..

لكنّه حين يصل، يحسّ بالرّاحة؛ يفكّر في ذلك؛ فجزء من العاصمة أمامه، هضبة أيضاً، ومساكن مكتظّة وبنايات متناهضة. لا يكاد يختلف الحيّز الذي يتحرّك فيه عن ذلك البيت الترابي، ولا الدّروب الموحلة أيام المطر؛ لكن من حسن الحظّ أو سوئه، أنّ الأمطار لا تهطل كثيراً هنا، فيرتاح من معالجة المسارب في السطح والجدران، حتّى لو كان هناك من يريحه من ذلك؛ الأيّام الأخرى لا تقلّ ضيقاً وعتمة عن الزّواريب العتيقة؛ فالغبار والدّخان الأسود متلازمان، ولا سبيل إلى الهرب من مزيجهما إلى هباب آخر!

*

كنتَ تنتشي حين يسألك الناس عن العاصمة؛ فأنت واحد من أهليها، وتخجل حين يعتزمون أنفسهم إلى مأواك؛ لأنّ الإرهاق سينال من أيّ زائر، لكنّ في سرّك ضحكة خافتة: لن يعيدها!

هل هذا السبب الوحيد الذي كان يشقيك، لو أنّ أحداً قصدك؟!

لم يكن عملك يتطلّب كلّ هذا القدر من السرّيّة؛ فسواك يجاهرون بميزاته، قد تكون حصلتَ على أهمّها؛ البيت وموادّه الحرّة المستثناة من الدَّور والتّقنين والوثائق.. والثّمن ربّما، والبنّاؤون والكسّاؤون، والزوجة التي طاب لها أن تنقطع العلاقة مع عائلتك كلّها، وضيعتك، وتتقطّع صلة رحمك.. كنت تفكّر قبل ذلك أن تفرّ من صمتك الذي طال، لتتكلّم؛ لم تكن تستطيع الكلام، وحين تتكلّم ما من أحد يسمعك؛ كنت تفكّر في أن تأتي إلى هذه المنطقة بالذّات، لتتحدّث.. حتّى إلى نفسك،

لتقول كلاماً في الهواء، كما الكثير الذي كان في بداية مسيرتك الكفاحيّة.

لكنّك لم تُقدِمْ على تلك الخطوة؛ لن يسمعك أحد هنا، لم يتعرّفوا إليك، ولم تعد تشغلهم الغرابة والجدّة؛ لم تعد ملفتاً للانتباه ولا للاهتمام، صرت كائناً منبتّاً. لم تكن تتحدّث إلى نفسك كيلا تغدو مجنوناً. الآن يمكنك أن تقوم بذلك، ها أنت وحيد وبعيد، لكنّك لا تستطيع، تخاف أن يسمعك أحد!

«لم آتِ إلى هنا لأشرف من على المظلّة الصخريّة البارزة، ولا لأتأكّد من أنّي قادر على العبور فوق التّجاويف والنّتوءات الشوكيّة، ولا لأتقرّى العناصر المميّزة، كانت مميّزة، في الهضبة التّالية، ولا لأتعرّف إلى أحد؛ أو لكي يلتفتوا إليّ»؛ يغمض عينيه، ويحاول العبور أزمنة وأمكنة: من يعرفونك ماتوا، وأقرباؤك مقاطعون، والأجيال التي تلت عاجزة عن أن تذكر

اسمك وشغلك، ولا سيّما أنّ تردّد الطلّاب إلى العاصمة قلّ، بعدما صارت جامعات أقرب، ومن كانوا هناك، أنهوا دراساتهم وإلزاميّاتهم، وعادوا، ليضيعوا كلّ في منزل وأسرة ووظيفة.

لم يسأل عنك أحد بعد ذلك؛ فأنت لست للضّيف ولا للسّيف ولا لغدرات الزّمان؛ ما ساعدتَ أحداً في وظيفة، ولا أمّنت لأحد مكاناً مناسباً في الخدمة، العقبةِ الأساس في مسيرة كلّ مكلّف، ولا استثنيت أحداً حتّى مقابل عروض مغرية؛ فمن سيذكرك؟!

لم تستطع أن تمنع رغبتك في الاطّلاع والإشراف والإطلالة على الجهات..

تكتشف الآن مدى خسارتك، ومدى ضياع إمكانيّات أو هوايات أو مُتَعٍ.. فخرجت!

حتّى بعد أن تقاعدتَ من عملك، لم تعدْ، وظللت مركوناً في ذلك البيت؛ الأولاد تخرّجوا، واستلموا مهامّ أكثر اتّساعاً وعلنيّة وحريّة، في أعمال

لا تعتمد على الوظيفة إلّا في تأمين الزّبائن والمشاريع، وزوجتك لا تقبل مجرّد التفكير في الرّجوع. لكنّك فكّرت في ذلك، حتّى قبل أن تعرف أنّ اسمك بين المطلوبين للثّأر، أو لتقديم القرابين؛ الأولاد يتدبّرون أمرهم، وأمّهم أيضاً؛ أمّا أنت، فالأحياز تضيق والمنافذ والكوى؛ تتساءل بقلق: هناك قرابين أدسم، وما تزال على رأس مواردها أو مواسيرها؛ أمّا أنا فقد خرجت بالقليل من الحمّص، أمام الكثير الذي حصل عليه آخرون من الموالد العامرة؛ فلماذا أنا؟!»

تصعب الإجابة؛ لأنّ مجرّد طرح السؤال عبث، ومن سيقوم بالمهمّة، لم يعتد المناقشة في أمر، أو انتظار الجواب؛ ولم تتعوّد؛ وما عليك إلّا أن تقبل أن تكون ضحيّة لا بطلاً، فهل تقبل!!

لقد تجرّأت أن تخرج من الكهف؛ لم تَقْدرْ أن تمنع رغبتك أكثر من ذلك في أن ترى الحياة الّتي كانت،

وربّما تكون بالنّسبة إليك على الأقلّ، السّفوح والهضاب والذّرا والكائنات..

لا.. كلّ شيء إلّا الكائنات؛ لا ألفة معها ولا أمان. تفكّر في الصيّاد الذي كان، والطرائد الّتي كانت تفرّ منك، أو تكمن لها، وبتّ تتكامنُ قلقاً، وتتخفّى.. وإلام يطول الحذر؟! وهل يُنجي؟!

***

رغبة!

تخيّلتُ دهشته حين سيصل إليه الخبر. دهشتُ أيضاً حين راودتني الفكرة؛ لكنّ التساؤلات التي توهّمتُها تتقلقل على الشفاه، سرعان ما ناست: لم يعد الأمر كما كان، لم يعد شيء مفاجئاً!!

لكن.. هل أستطيع التهرّب طويلاً من حالي وموقعي، من نفسي التي أعرفها أكثر من الجميع؟! وكنّا نتدبّر الظهور أمام الناس، ونتناوب المواقف، ونتصابر ونتحامل!!

ربّما كانت الحال الجديدة تخفّف من عجبه، وتزيد سعادته؛ وقد صار مطلوباً من الكثيرين، بعدما ظلّ متخفيّاً زمناً، مع أنّ حركاته في الظلّ المنظور لم تهدأ،

ولم يكد يصل أمرٌ جدّي بالقبض عليه إلى حيّزه، حتّى يتحوّر ويتحلّل..!

*

«لو كان الوضع طبيعيّاً، كان سيفرح لمجرّد أنّك فكّرت في التحدّث إليه، وسيقول في السرّ والعلن: لبّيك.. عبدك بين إيديك!! مهما كانت خطورة الطّلب، وبلا ثمن!!

قد يُعرَضُ عليك الكثير ممّا لديه، ولم يكن قليلاً؛ لكنّه لا يُقارن بما صار لديه، بما لم ينتظر، ولم يحلم!

فهل سيكون بمقدورك دفع الثمن الذي سيطلبه الآن؟! أم أنّ عرض تقديم الخدمات المفتوح ما زال قائماً!!

يمكن أن يكون لمن يتعامل معهم دور في ذلك، لم يكن وحيداً من قبل، هذا صحيح، لكنّ المشاركة تغيّرت؛ المستوى والأدوات والعناصر والثمن والغاية!!

تفكّر الآن أنّ وجود أمثال هؤلاء قد يسهّل مهمّتك، لأنّ من مصلحتهم أن تميل إلى جانبهم؛ لِما لك من صفات يستطيعون استغلالها! هناك من سبقك إلى ذلك علانية، وكانت له حظوة واهتمام، وهناك من تُحوَّل إليه الميزات بلا ضجيج؛ فهل سيقلّل ذلك من أهمّية افتراقك عن الخطّ الذي عُرفتَ به؟! قد تزيد حماستك المعروفة من معنى ذلك التبدّل، الذي تشكّل رغبتك بالتواصل معه بالذات إشارة مهمّة إلى ذلك، سيلتقطونها لا ريب؛ ربّما كان من حسن حظّك أنّ أوضاعهم على الجبهات الأخرى لا تُطمئن؛ هل جئت في الوقت الضائع؟! أم هو التوقيت الذي يجعل من حركتك حدثاً ذا جدوى!!

إذن؛ لماذا تأخّرت؟! هل طالت فترة تفكيرك؟! أم أنّك كنت تحسب الأمور، وبالغتَ في ذلك، كما أوغلتَ في مواقفك التي سبقتْ، ما جعلك تحاصَرُ طويلاً، وإن كان جزء أساس من ذلك ذاتيّاً، حتّى صار بإمكانك أن تنفّذ؛ فالحالات المماثلة تعدّدت،

واندفاعتك تلك ابتردت أو تكاد، ولا شكّ في أنّ حصارك ذاك جعل من يبحث عن ربح إضافي في استمالة الأشخاص المهمّين، يتردّد في التقرب منك؛ لكن.. لماذا لا يجعل هذا منك صيداً ثميناً، يُدفع من أجله الكثير؟!

فهل هناك من ما يزال يدفع بالحماسة ذاتها؟!»

مهلاً مهلاً.. من قال إنّي تغيرت، أو غيّرت موقفي وموقعي؟! أليسوا مبالِغين في ذلك؟! فهل مجرّد إبداء رغبتي في التّواصل مع هذا الشخص يدلّ على ذلك؟!

صحيح أنّه ليس قليلاً؛ لم يعد فرداً، وصارت له علاقاته في الداخل والخارج، والأهمّ من ذلك أنّ له من ينفّذ إرادته، بعد أن كان يقوم بذلك شخصيّاً؛ لهذا لن يكون صعباً عليه ما أريد، ولن يكون شاقّاً التفنّن في تنفيذه، هذا الذي لن يضيف الكثير إلى صورته التي يسعى إلى تكريسها والمبالغة في ذلك،

هو الذي كان يفرح لأيّ أذيّة تلحق بالناس، ويُسارع إلى تعميمها، إذا لم يكن مشاركاً، قبل أن صار مخطِّطاً، ومدبِّراً لأنواع متوحّشة من الأذيّات، وأساليب مخترعة لا يلبث أن يتجاوزها لاحقاً، تثبت إبداعه في ذلك؛ الإبداع الذي كان من الصعب أن يذكّر به، أو أن يُدعى النّاس إليه؛ حتّى إنّ إنجازاته الأخيرة التي صوّرت وعمّمت: الذبح بالمنشار، والاغتصاب بالمثقب الكهربائي، تمّ تجاوزها مؤخّراً بعد تقاذف رأس وليد بين الأقدام كرةً دامية!

ترى.. هل هذا الإيغال في التّوحّش ما دفعك إلى تكليفه بالمهمّة؟! أإلى هذه الدرجة وصل بك الحقد؟! لو كان الأمر يخصّ واحداً من المتآمرين والفاجرين والمنافقين الذين تهرّؤوا، وتشقّقوا عن تاريخهم، وتحوّلوا إلى منتقدين مستنكرين ما أسهموا فيه، وناشري الغسيل الذي وسّخوه، وتحطيم ما اشتركوا في تشويهه.. لكان الأمر مفهوماً، ولا سيّما أنّكم لم تكونوا على وفاق، حتّى حين كنتم في الصفّ

ذاته أو الاتّجاه عينه؛ ولو كنت أعلنت موقفاً صريحاً منبتّاً، لكان الأمر يُتفهَّم، حتَّىٰ لو كان غير مقنع..!

أمّا طلبك هذا، فقد يكون مفاجئاً لهم، وقد لا يقومون به، ليس تعفّفاً، ولا ترفّعاً، أو تراجعاً عن مسار ظلاميّ، ودرك أسفل؛ بل لأنّه لا يمثّل شيئاً هامّاً في سيرتهم، ولا يزيد من أرصدتهم، ولن يضيف ربحاً إعلامياً، إلّا إذا عمدوا إلىٰ تلفيقٍ وادّعاءٍ وتُهم، وليس هذا غريباً عنهم، ولكنّهم مشغولون بما هو أشنع وأغلىٰ وأدسم؛ أمّا من تودّ الاتصال به لتنفيذ رغبتك، أو نزوتك، أو انتقامك؛ فقد يضحك منك مجدّداً، أو يغضب: أمعقول أن تطلب -أنت- منّي -أنا- مثل هذا الطّلب؟!

❊ ❊ ❊

رجلٌ مثله!

قال جملته وتوقّف، نظر وانتظر مَلمَحاً أو نأمة تشير إلى موقف جليسه، في عينيه استراق، وعناصر وجهه تفترق وتلتئم، مخلّفة مشهداً متحفّزاً للانخراط في هجوم تتوالى فصوله اليوميّة، أو للنّكوص والاختباء خلف العبارات المعمّمة والحياديّة التي لا تُشِيع الرّاحة، ولا تشي بالقناعة المُرضية..

استطاع الجليس ضبط أعصابه، تعوّد هذه الحالات من أناس غرباء، يخمّون الحاضرين قبل أن يحدّدوا وجهة الحديث الذي يمكن أن ينطلقوا فيه، وليس من الممكن التفلّت من سلطانه؛ فهو حديث الدّنيا، القنوات المعارضة والموالية، المحايدة والمتطرّفة،

حتّى ليكاد مسؤولو العالم يتفرّغون لما يجري في البلد، وباتتْ الكرة الدّائخة من مشكلاتها وصراعاتها توقّع دورانها على الأحداث عندنا، فتضطرب، وتتقافز، وتتهاوى على إيقاع القصف وأخباره، و«التحرير»، والنّزوح، والخراب، والدمويّة؛ فكيف لا يكون ذلك محور الأحاديث البينيّة أو أصدائها على الأقلّ، أو الكلام عن المهدّدين، والمهدّئين، والمبشّرين بخلاص ما يزال وعداً..

«حتّى الجالس وحده، ستكون مفردات الأحداث عناصر متحرّكة في سلسلة تفكيره، للوصول إلى موقف يريحه، فيجمّع ما يدعمه، ويدحض ما يشوّشه، ولو كانت درجة الموثوقيّة لا تحتاج إلى شهود..».

تململ الضّيف قليلاً وهو يحرّك نظراته عن شقوق في الأرض تتشعّب، وحشرات تتسابق وتتقاطع بلا اشتباك، ورفع رأسه بعد وقت من الصمت الضاجّ،

أحسّ به يضغط على أعصابه، قبل أن تخزه كلمات توقّع أن يسمعها. نظر إلى مضيفه الذي ينتظر ردّ فعل ما ليتحرّك..

كان يتمنّى أن يكون محدّثه من الذين يجاهرون بالاعتراض، فيكون للّقاء به منحى واضح، حتّى لو أدّى إلى العراك، أو إلى أن يفكّر في تجنّبه، وتمنّى أكثر أن يكون ممّن لا يحقّ لهم الحديث في أخطاء الماضي وجرائره؛ لأنّهم من أصحاب السوابق المعروفين، ولا يخجلون، ومن السهولة مجابهتهم، ولو كانوا يجاهرون بما فعلوه.

«يظنّ من يسمع كلامه، أنه ممّن أُخرجوا من مهمّاتهم تعسّفاً؛ ضُيِّق عليهم، أو اُمتهنت كراماتهم، وقد حدث هذا كثيراً، فتجد لهم بعض الأعذار، على الرّغم من أنّ الأمر في حقيقته أكبر من ذلك وأعقد.. ومن هؤلاء من يرى ذلك أيضاً، وقد تعالى على الجراح.. كما يمكن افتراض أنّ المُناجِزَ من

أصحاب الانتقاد المتواصل لكلّ شيء؛ كانوا كذلك، وما يزالون، ولن يوقفهم أمر، أو تردعهم حال، مهما بلغت درجة خطورتها، من دون التفكير إلى ما سيؤدّي ذلك من تيئيس إضافيّ، ومبالغة في الخيبة والخسران..

ومن المتحدّثين من يسير في تحليلاته وفق الظّروف ومجرى الأحداث، وحسب الموازين على السّاحات العسكريّة والمدنيّة، تلك الّتي قد تتبدّل بسرعة.».

أعاد النّظر إلى البقعة الأرضيّة التي تضجّ بالحركة والحيويّة؛ كائنات تتشابه وتختلف، تتسارع وتتباطأ، ومنها ما يتوقّف، يراقب، وينتظر..

«كانت الحال كذلك في ساحات المدن، وفسحات الحارات، ولم نكن راضين أو سعداء؛ كانت الحياة تتفاعل وتتلوّن، ولم نكن متفائلين؛ فما بالك الآن بعد أن فرغت المساحات، وأقفرت الشوارع، واكتأبت الممرّات؟!»

زفر، وارتعش، وتغيّر لونه..

كأنما أحسّ الرجل بضيفه تردّداً أو ضعفاً، فاندفع في كلام يتمادى في نسف كلِّ شيء؛ عبارات لا يستطيع تحمّلها حتّى من إذاعات عدوّة، وأشخاص معروفين بمواقفهم المناوئة للبلد، يطلّون من منافذ إعلامية عديدة، ينفثون ويعربدون ويتوعّدون..

ما زال يحدّق في وجهه ذاهلاً، وقد استشاط توتّراً وتشنّجاً وألفاظاً سوقيّة.. لو نطق بها سواه، لانهال عليه شاتماً أو ضارباً ربّما، أو لانسحب من المواجهة تفادياً لما لا يمكن أن يتوقّع ما تؤول إليه القضيّة!

يتساءل أحياناً: لماذا لا يقاطعه؟! لماذا يصرّ على مجالسته؟! هل يتمنّى أن يسمع مثل هذا الكلام، «لأنّنا نستحق»، وإذا ما استمع إليه من شخص كهذا، يكون أفضل من أن يصدعه به الآخرون الذين يستشعرون به ضعفاً أو انهزاماً، وقد انتظروا ذلك طويلاً؛ أم أنّه يشفق عليه، فيتركه يُظهر ما في

باله من أدران، ويخرج منها الصّديد الذي قد يريحه، ولو كان ذلك لبعض الوقت؟! أم تراه يخفّف عن أفراد أسرته الذين سينهزمون أمامه، أو يتفرّقون، أو يقتعدون كأنّ على رؤوسهم السيف، لا يستطيعون مواجهته، أو لا يريدون.. خوفاً أو احتراماً؛ فهل يقف الموقف نفسه أيضاً؟! هو لا يخافه بالتأكيد، ولا يخاف أمثاله؛ هل يحترمه، ما يزال يحترمه؟!

«يستحضرني الكثير من نقاط ضعفه الّتي تجعلني أنال منه، وأنزعج من نفسي حين أفكّر في ذلك، لكن لا يمكن السّكوت، ولا يجوز استمرار التغافل، حتّى لا تتفاقم القضايا. صار الوضع ملحّاً أكثر».

يضحك، على الرّغم ممّا يصطرع في داخله.. فقد تذكّر جارتهم الّتي كانت تظلّ على مرمى ضربات زوجها المقعد، مخافة أن يحاول اللّحاق بها، فيقع، ويؤذي نفسه أكثر! هل ظهر ذلك على ملامحه، فاستشاط ندُّهُ استطراداً في انفعاله؟! لا يودّ ذلك؛

هل ظنّ أنّه يسخر من كلامه، فتأذّىٰ؟!

ليس بمقدوره إبعاد هاجس تقصّي سلبيّاته التي كانت، وما زال يحاول كتم أنفاسه عن الحديث فيها. لكنّ إلىٰ متىٰ يستطيع ذلك؟!

«ما المهمّ أكثر: الموقف العامّ أو الخاص؟! الحرص علىٰ البلد أو الحرص علىٰ أنفسنا، أو المقرّبين منا؟! وإلىٰ أيّ درجة يمكن التساهل في ذلك؟! التهاون الذي سبق أدّىٰ إلىٰ الكثير من الخسائر والكوارث..».

هناك مفارقات سبّبتها الأزمة، وستخلّفها مع مرور الوقت، وتترك تساؤلات تحتمل أكثر من إجابة، - يفكّر في ذلك أحياناً- بعضها يتولّاه الواقع والمواقف التي تظهر؛ هناك فاسدون يقفون الموقف الذي تمليه المواجهة المصيريّة، يتحدّثون بمنطق ودراية؛ فماذا تقول فيهم؟! هل تسكت عنهم؟! وقد تغفر لهم، من أجل وحدة الوطن؛

إذ نحتاج في هذا الوقت إلى كلّ صاحب إمكانيّة وجهد وموقف؟! أم تنبذهم، وتؤكّد ضرورة محاسبتهم الآن قبل أيّ وقت قادم؟! وماذا عن أولئك الذين لا غبار على سيرتهم، لكنّهم مترددّون أو منهزمون؛ هذا ما ظهر منهم؛ أو حاقدون، فيوهنون، ويشاغلون، وتبدو رياحهم في جهة الخصوم والأعداء؛ ليتهم يسكتون فحسب؛ ليتهم يصبرون الآن أيضاً، كما صبروا من قبل، ليتهم يترفّعون عن المشاعر الفرديّة، والتّخوم الخاصّة، والرؤية القريبة القاصرة أو المشوّشة!

إنّه يستحقّ الاحترام، كان كذلك حقاً، لم يعرف أحد عنه انغماساً في مفاسد السلطة، ولا أيّة أعراض من أمراض الكراسي الملعونة. لم تمتدّ يداه أكثر ممّا يتيح القانون، ولم تتجاوز قدماه حدود المسؤولية، ولا اختلس النّظر إلى سيقان القاعدين أعلى، ولم تجتذبه هاماتهم التي قد تنخفض إلى ما تحت ذلك.

لماذا يحدث هذا؟! لماذا يُضيع رصيده الذي تجمّع في نظر الآخرين، وعارضه كثيرون؟! صحيح أنّه لا يدخل في مصرف، ولا تستوعبه خزنة، كما سخروا منه، وأطلقوا عليه بعض صفات المديح الذي يشبه الذمّ؛ بل يبدو أقسى منه؛ هل هذا سبب رئيس من أسباب ما هو عليه الآن؟! ولماذا يستجرّ مثل تلك الصّفات أو مرادفاتها على نفسه بنفسه؟!

إنّ من حقّه عليهم احترامه وعدم التفريط به، ومن واجبهم أيضاً؛ فَلِسواهُ أرصدةٌ من جيوب الآخرين، ومن مياه وجوههم التي تراق بلا خجل، ولا يصرفون ذلك حتّى في مشروعات غسل الأموال. كانوا يحسون بذلك، ويقدّرون؛ فهل ما يزالون على آرائهم؟!

الكلام المسموم الذي يتلفّظ به، التّحليلات والعبارات التي تخرج من بين شفتيه كالعلقم أو الرّشقات القاتلة لا تسمح بذلك؛ ما يزال التيّار

يتصارع من دون أن يلقي بالاً إلى جليسه، الذي يحدّق في عناصر وجهه كالمأخوذ أو المتفكّر:

«لو حدّثتُه بذلك، سأجرحه، وقد يثور على أفراد أسرته، أو يؤذي نفسه؛ لا أحبّ أن أراه صغيراً، كان كبيراً في نظري، ويجب أن يبقى! ولكن.. ماذا عن الآخرين الّذين يفرحون بمرآه المتخاذل، ويشمتون به وبنا؛ فربحهم بذلك مضاعف، وموقفهم يقوى، بتوافقه مع رأي رجل مثله..

لا أستطيع مواجهته، مع أنّي صددت كثيرين في هذه الأزمة، وما أزال، وعاندت آخرين في ما مضى، وحاججت مسؤولين وأقوياء، وقد كان هو ذاته في كلّ مواجهة سابقة المثالَ والقدوة، كنت أتمثّل به، وأفتخر أنّي تربّيت على خصاله، وقد تواصلَ في مهمّاته، ولم ينثنِ، ولم يَهِنْ، وخرج بكرامته، وإن كان للكثيرين محاولات علنيّة وخفيّة للنّيل منه.

فماذا يقول الآن، وماذا أقول؟!

وهل من سبيل لإقناعه؟! هو الّذي كان يسعى محموماً إلى تنفيذ الواجبات، ويقعد صلباً معترضاً على أيّ انزلاق أو انهزام..

هو الآن يلوم ويهزّئ، ويجرّح ويتّهم، ويبالغ في ذلك. هو الذي عانى من الاتّهام والمبالغة طويلاً..

أحتاج إلى أن أوقفه، من أجلي وأجله، كيلا يصغر في عيني ويتهالك أكثر، كما سقط في نظر أفراد أسرته، وآخرين أسرّوا لي بذلك.. أحتاج إلى أن أوقفه، فهل أستطيع الآن، أو أنسحب بانتظار لقاء آخر، يجب ألّا يطول؟!

❊ ❊ ❊

زيارة

الأصداء الموقّعة تردّد الأصوات المترامية عبر الجهات تضاريسَ ومشاهد، لتعيد تشكيل النّبرات والكلمات التي لا تُنسى؛ مولّداتُها التي تتناهض في التّلال المحيطة، كانت تُفتقَدُ إلى حين قريب!

ربّما كان لهذا الشّهر المميّز أثره الخاص، الذي يعطي لهذه الإيقاعات أهميّة مستجدّة، بعد ما لم تكن أصوات التّذكير بالمواعيد الصّارمة تصل إلى الأسماع؛ حتّى المدفعيّ منها، ويتولّى المذياع هذه المهمّة، ثمّ تأتي الفقرات المعدّة خصّيصاً، قبل أن تنتقل المحطّات إلى الأخبار، إذا كانت مدّخراته ما تزال تحتفظ ببعض الطّاقة التي يعزّ تأمينها!!

لو كان مرداد حيّاً، لرقص فرحاً ونشوة، وهو يستمع إلى الأذان يتعالى أوقاتاً محدّدة، وَلَاشْتبَك مع النّاس أكثر ممّا كان يفعل، حين يستهزئون منه، وهو يشدّ على حنجرته مؤذّناً في الكائنات الّتي لم تكن تلقي بالاً لدعوته.. تلك الّتي لا يعني لها الوقت شيئاً! فهلّ غار من الأصوات الرّخيمة، تنتشر من تلك الأجهزة المتوزّعة مع النّاس في أعمالهم، أم كان لديه ما يخفى؟! ربّما يضحك منّا الآن في مكان ما حولنا، ليقول: تأخّرتم؛ لو استمعتم إليّ منذ زمن، لما ظلّت منطقتنا محرومة من صوت التّكبيرات؛ كنتم مُعرِضين عنها، الآن بتّم مشغولين بها، تشيدون أبنيتها، ترفعون المآذن، تزيّنون الجدران، وتتنافسون في ضخامة المكبّرات وعددها؛ بناء واحد منها يكفي، فلا تتقاطع الأصوات والكلمات، ولا تتشابك النّبرات والإيقاعات، كما يحدث الآن؛ كأنّكم في سباق، وتقومون بالنّذور والولائم منفردين، ولا تجتمعون على صوت واحد وقلب واحد، ومائدة

واحدة، وكلمة سواء! حتّى بات الأخ لا يُدعى إلى وليمة أخيه، ولا يُستطعم!!

لو أصغيتم إليّ، ما خِبتم، ولو لم تهزئوا بي، ما ضللتم!

*

هل كان مرداد سابقاً لعصره؟! يكبّر بلا مواعيد، ولا مناسبات، ويعلو صوته وحده؛ فلا صوت المذياع يمتدّ بعيداً، ولا مسجّلات أو مآذن. وكان يلوم ويعتب بلسان سليط، وألفاظ غليظة، لا تستثني مَنْ يهرعون إلى تلبية الدّعوات، وإقامة الولائم، منتشرين على الطّرقات الوعرة بثيابهم المميّزة، وهرولتهم المحمومة متباعدين مسافات!!

كان يصفهم بما هو غير محبّب، ويروي عنهم الأحاديث والوقائع التي يشهد الكثير منها؛ لأنّه

قريب منهم، ويفرحون لإصاق لقب المجنون به، ويروّجون.

الأوقات القليلة التي تسنّى لي أن أكون معه، غيّرت الكثير ممّا كانوا قد رسموا في خيالي عنه، وفتحت مدارك لم أكن أعرفها، تأكّد كثير منها لدى إقامة إحدى الولائم النّادرة في بيتنا، تحت إلحاح الجيران، وعتب الأقرباء..

كانت أولى الطرائف الإباحية التي تطرق سمعي، تخرج من بين أوداج الرجل الكبير، الذي افترش بإليتيه معظم الفراش، وترك ما تبقّى من أطراف الحصير لآخرين، ضحكوا بشكل فاجر، والدي انقبض محرَجاً من وجودي الذي أَصرّ عليه، لأتعلّم وأستبين؛ أنا كبير أخوتي الخمسة! وأُستكملت الصورة، بينما كنّا ننتظر أن ينهوا طعامهم، لعلّهم يتركون بعض اللّحم الذي سنتسابق على بقاياه، بعد أن يكبّروا بامتلاء،

ويشكروه على نعمه، ويحمدوه هو الذي لا يُحمد على مكروه سواه!

*

الله أكبر، الله أكبر.. تعود الأصوات متواترة، وتدور أسئلة مُرّة: أيّ معنىٰ لكلام كبير في حضرة أفعال مُنكَرَة؛ فهل تسوّغها أو تبرّئها، أو تساعد في اقترافها؟!

وتترامح أمامي مشاهد الذّبح والتّكبير والتقطيع، وانتهاك السبايا!

أيّ فتاوىٰ تبيح؟! وأيّ تكبير يصحّ، وأيّ صلاة تجوز، وأيّ فرح أو هياج يدور؟!

*

هرعتُ إليّ الجارة ملهوفة، كاد يقع الكتاب من حضني، حين نهضتُ مرتاعاً من منظر السّكّين،

وضجيج ما يختلج بيدها الأخرىٰ، وقبل أن أستوعب ما يحدث، قالت:

– تأخّرتُ في تحضير الغداء، ولم أجد سواك رجلاً في هذه الحارة!

ألقت إليّ الديك، وقبل أن أتلقّاه، رفعت يديّ:

– لا.. لا أستطيع، لا.. ابحثي عن رجل آخر!!

جمدتُّ، وجال غضبها يلاحق قفزات الدّيك وصياحه، وتراجعتُ إلىٰ الوراء، حين همّت لالتقاط السّكّين، الّتي وقعت هي الأخرىٰ:

رجال آخر زمن؛ سأبسملُ وأحوقلُ، كما تفعلون، فيصبح حلالاً؛ سأذبحه أنا، وليكن ما يكون!!

كنت سأقول لها: ماذا اقترف بحقّي هذا المخلوق المسكين، لأجازيه؟!

ولكنّي تمالكت نفسي، وتساءلت بعد أن غابت:

حتّى لو عمل منكراً، فهل يكون جزاؤه بهذه الطّريقة الوحشيّة؟!

وهل يحلّ ذلك إذا ما كُبِّر وبُسمِل؟!

كنت أتعجّب من صاحب الدّكّان القريب، الذي يُزهق أرواح العشرات في اليوم الواحد، بعد أن يتمتم ببضع كلمات، حتّى أحجمتُ عن الشراء المباشر منه، وربّما نابت عنه زوجه مراراً في غيابه!

رحت أتذكّر ذلك، وأنا لم أُشفَ بَعدُ من مشهد ذبح آخر لمخلوق على شكل صورة الإله، يتكرّر بعد أن أُحِلّ بالتكبير، ولم يكن مجدياً التساؤل عن ذنبه، أو ما ارتكب من أعمال، أو لأيّ قبيلة انتمى من دون خيار!!

وتناوبت الصّدوع في رأسي وإحساسي، فيما الأصوات ما تزال تتعالى من الجهات كافّة.

لم يكن في نيّتي الذهاب إليه؛ وخطر لي الآن ذلك،

وقد أُطلقُ لمن ألِفوه عنه من هناك أذناناً، كذاك المميّز بإيقاعه وترجّعاته، علّي أكفّر عن نكران أو جحود أو افتراء، وكثير من الأحاديث والوقائع التي شَيّعوا، ونسبوا إليه ما كانوا يفعلون!

سأزوره، فقد حُقّتْ عليّ الزيارة، لم أكن بعيداً عن مرقده؛ لم يكن مزيّناً أو مميّزاً كسواه بحروف غائرة أو نافرة، ولم يكن طريّاً كعدد من المواقع التي تكاثرت في الأيام الماضية محتضنة جثامين تترىٰ، ولا جافّاً كمواقع أخرىٰ تنتظر..

لا أكاد أجزم أنّني تعرّفت إليه بسرعة أو يسر؛ لكنّ معالم متناسية تقود العارف من ثقته، أو المُحبَطَ من خيبته.. ربّما تراوده نفسه الأمّارة باللّوم والتبكيت أن يرتاح في منخفضها، كما أُريحَ العديد من الضحايا، بعد أن اُستنزفوا حتّىٰ آخر رمق في تجهيز أنفاق وكهوف لا تخصّهم، وحفرٍ غير منتظمة تكوّمهم؛ قد لا يفتقدون

التكبير وهم يُعدمون، إذا ما كانت تلك هي المشكلة!

*

ربّما لم يسمعه أحد حين كان يقول:

أنتم لا تعرفونهم؛ حتّى أخي استولى على أرضي، وزوجتي!!

يستطيبون ولائم الأرامل والزّوجات اللّواتي لا يفتقدن أزواجهن، وتتكاثف الأطباق الغاصّة، والروائح العابقة لدى الميسورين المكفِّرين عن ذنوب أخرى ستُرتكب؛ لاحظوهم كيف يختصرون (الحمدو)، ويقرطون (الجزو عمّ)، ويبلعون أطراف العبارات، ويتسابقون للوصول إلى أكبر عدد من الدّعوات في أقلّ وقت!!

فهل يسمعني الآن، وأنا أفكّر بصوت عالٍ، لو أجرؤ؟!

وما تزال تلك الصورة الحازّة تراود مخيّلتي، ومشهد التكبير المُلازم للدّم الذي يسيل. لكنّني لم أتوقّع أن أسمع تكبيرة مختلفة الإيقاع مشابهة لما كان يؤدّي، ولم أدرِ إن كانت قد خرجت من مرقده، أو من القبور الطازجة، أو نفثتها أنفاسي اللاهثة!!

❊ ❊ ❊

بلا معنى

– ما هذه الضّيعة؟! لا يجد المرء شقّاً يدخل فيه وتده؟! «بلا معنى»!

تعلو القهقهات والشتائم المعلنة والخافتة، تخفي النسوة ضحكاتهن بأكفهنّ، أو بأطراف خُمُرِهِنّ، الأولاد يتساءلون، ويزيد رصيد الدّهشة والإثارة من حال (بو توفيق)، البائع الجوّال، الذي يزور القرية مموّناً أوقاتاً تفتر وتبترد؛ فما تكاد تخفت أصداء آخر عبور له، حتّى يجنّ انتظاره وترقّبه، ولعلّه لا يحدّد موعد زيارته القادمة، كي يكون لوصوله وقع مختلف، ولمروره معنى مغاير.

لم يكن بو توفيق كسواه من الدوّارين بسلالهم

المكتظّة بما خفّ وزنه وثمنه، أو المحتشدة بالعنب الذي يُستبدَلُ به حبُّ الزيتون، أو الجَوز الذي يُتبادَل مع معايير من الزّيت، ولا كأولئك الذين يجهدون بأكتافهم التي تضيّع الرؤوس، بما تحمل من بسط وحصر ولبّاد، وتدلّ عليهم أصواتهم الغاصّة، فيما آخرون يتسوّلون بنبراتهم النّائحة العائذة بكسرة خبز، وبقايا طعام!

*

حتّى حمار «بلا معنى» كان مختلفاً عما تعلّمه من زملاء الانقياد؛ ابتداء من صوته الجهوري منذ بروزه في أعلى السّفح المقابل، وحتّى مغادرته مع حلول المساء بالصّوت ذاته مع بحّة مؤثّرة؛ يحرن كثيراً، ويرفع رأسه، وقد يرفس، كما يقول صاحبه، الّذي يُضطرُّ إلى تثبيته من رَسَنِه المعدنيّ ووتده المدبّب، إذا ما طال الوقوف، وأطالت النسوة المساومةَ، خوفاً عليهنّ من ثورته، التي لا يستطيع حيالها الكثير،

فيلاطفه، ويربّت على رقبته، وينزل بعض أحماله، ويَحمِلُ على الأولاد الذين يثيرونه غير عارفين نتيجة ذلك!

كان يستطيع تخيّرَ أوقات تكاد تخلو القرية فيها من رجالها الموزّعين في السفوح والحراج، في المطحنة والمعصرة، أو في البلدة القريبة والمدن الأبعد!!

ولم يكن اسمه محبّباً لدى الكثيرين من الرّجال، وكانت نسوة يتحاشين ذكره أمام أزواجهن، إلّا إذا كان القصد من ذلك الإغاظة، وفي أوقات خاصة، ولكنّ شيئاً ما كان يسود كالعقد السريّ والمتعة الغامضة؛ فهم لا يستطيعون منعه من دخول القرية، بعد محاولات فاشلة، لاضطرارهم إليه في تأمين حاجيات يصعب عليهم تأمينها، فابتلعوا «الوتد» على مضض «بلا معنى»؛ كما يصرّحون في خلواتهم، مُخرجين ما في دواخلهم تمثّلاً للرّاحة التي تشبه حال الاعتراف.. أما العجائز فكانوا يجدون في سيرته

متعة لا تخفى على ملامحهم، ولا يملّون ترديد عبارته الشهيرة، بمناسبة أو من دونها!

*

يستطيع عبد الله في أوقات متفرقة أن يستعيد هذه المشاهد التي خبرها غرّاً، كما كان بو توفيق يُستذكَر، من خلال بعض الأغراض التي ما تزال تطلب منه، ويحرص على أن يحتويها دكّانه البسيط هذا، أو تذكّره به عجائز تحنّ إلى تلك الأيام، وكان يافعاً! فيضحك بنشوة، ويهمّ بالنهوض من على عربته، فيحتاج إلى من يُعينه، فيعضّ على أسنانه، ويكتم غصّة حارقة!

*

في ركنه الذي يُظلم أكثر فأكثر، راح يراقب ما يجري في الحارة التي استعصت على العبور الآليّ

بسبب الرّكام والنّفايات. منذ سنوات كان يطلب من أحفاده أن ينقلوا عربته بضعة أمتار إلى دكّانه على الشارع العام، الذي شقّ القرية بجرأة وعناد. كانوا يتذمّرون من هذا العمل الذي يتكرّر مرّات في النّهار الطويل، وباتوا يرفضون، بعدما انشغلوا بأمور أخرى، وصار يتأبّى أن يطلب منهم، بعد ما رأى في مساربهم شططاً، فاكتفى بالرؤية البعيدة، ثم السمع الذي يخفّ باطّراد، فيرافع نصفه العُلويّ، ويضع كفّه خلف أذنه، ليجمع شيئاً ممّا يُسمع.. لعلّه يستطيع أن يميّز بعض كلمات قد توحي له بمعنى ما يقولون!!

فيهزّ رأسه، وقد يلطم براحتيه جنبيه وخدّيه!!

«الأصوات ذاتها كانت منذ أمد غير بعيد تدور في الممرّات الضيّقة، تدعو الناس إلى الساحة، وتهتف بإيقاعات مشابهة وتصفّق؛ لأنّ شارعاً عريضاً سينزل من أعلى السّفح، يخترق القرية، ويعاود الصعود من

السفح المقابل، بعد أن يعبر المسيل المزاجيّ من فوق عبّارة بفوّهات متعدّدة..»

الأصوات ذاتها، والأشخاص أنفسهم، ومعهم آخرون أكثر يفاعة، فتحوا الشارع، وتسابقوا فيه لمرافقة سيّارات المسؤولين الذي قصّوا الشريط الحريريّ؛ تلك التي رابطت غير بعيد مع الكثيرات غيرها، من دون وتد وشقّ، على الرّغم من أن رفستها قاتلة!! ورقصوا طويلاً، حتّى شعشعت الكهرباء، بعد أن انتصبت أعمدة جوار الشارع، وفي أراض وعرة، ساهموا في جرّها بحماسة، تجاوزت أيّ تفكير بالمخاطر الممكنة.. لكنّ ساقيه كانتا ضحيّة أحدها!!

يحاول أن يتذكّر، ما كانوا يتبارون به في الهتاف الذي له معنى، من عبارات لها أكثر من معنى، وكان يردّد معهم؛ لا شكّ في ذلك؛ لأنّها كانت تخرج متدفّقة، وكانت الأجساد تنتفض معها،

لتجعل الصعب يتحلّل، والمستحيل يلملم أذياله، ويتلاشى!

*

لم يعد باستطاعته أن يفتح الدكّان. لم يعد من باب أو جدران، ولا أغراض.. حين أصرّ على الحضور للوقوف على أنقاضه، كان بينه وبين الموت فتوى، ضُرب وأهين وخُرّب كرسيّه المتحرّك، والشاهد على تهمته القاتلة ساقاه المقطوعتان، اللّتان تمثّلان رمزاً لمرحلة يحاولون محوها من التّاريخ والذّاكرة، ها هم يقطعون الأسلاك، ويرمون أعمدة الكهرباء، ويستخدمون حجارة الرصيف الملوّنة في غايات أخرى..

يرتجّ رأسه، ويتصامم، ويغمض عينيه «هل للعبارات التي ترافق هياجهم، والشّعارات التي يرفعونها في لافتات مزيّنة، علاقة بما يقومون

به؟! هل تدلّ على ما يجري هنا أو هنالك؟! وهل يفهمون ما يقولون؟! وهل السبب يكمن في ما كانوا متحمّسين من أجله، ويتنكّرون الآن له، أم أنّ العلّة في ما يقولون، ويهتفون؟!»

ينظر باتّجاه السفح الذي كان يطلّ منه بو توفيق، لم يعد يسمع نهيق حماره المبشر؛ «لعلّه يقول ما لم يعد مثيراً ولا شهويّاً ولا يستحقّ القهقهة، ولا تخجل من قوله النّسوة، بعد ما بات يقال عن حوريّات ينتظرن فوق للجهاد، وجهاد جنسيّ آخر هنا حتّى في المحارم! ليته يأتي ليقول ما لم أجرؤ على قوله حتّى بيني وبين نفسي، ولأردّد معه، وتتعالى أصوات أخرى: «بلا معنى»!».

❊ ❊ ❊

طالع!

كان على واحد منّا أن يغيب؛ تلك كانت رؤيتي لحلّ إشكاليّة مزمنة، وكنت أتمنّى أن يغادر بلا رجعة؛ أو أنتهي بلا انتظار مشوك يطول!

لستُ ممّن يكرهون، ولكنّني لست من دون مشاعر أو عاطفة! لست ممّن يستهينون بقدراتهم، لكنّ لآخرين حضوراً مختلفاً، وأصداء خاصة، قد لا يراها أو يستشعرها إلا من كان قريباً من النار، التي تحرق أكثر من أصابعه، حتّى لو ابتعد أو ابترد.

لم يكن مميّزاً، ولا يكاد يُذكر إلا لماماً، لكنّ مجرد عبور صداه عرضاً، يثير زوابع، لا تتوقّف إلا بعد أن تُشلِّعَ بعضاً من زروع اُستنبتتْ بحذر وجهد، أو

تصدّع أركاناً أُبتنيتْ بشقّ النفس وعرق الجبين.

الأمر لا يتعلّق بي، ولا يتركني من دون أرق وتبكيت، وقد جاهدتُ مستهدياً أن أفرد الخصائص التي تجعلني أبزّه شهادة وسمعة، وأثراً اجتماعياً لا يكاد يغرب عن أحد في المنطقة؛ بل أَبْعَدَ منها، وحاولتُ منكبّاً أن أخفّف من الوخز واللّسع والتألّم.

وكدت أصل في كلّ مرّة إلى شبه اقتناع، أنّ هذا الإحساس مبالغ فيه، وهذا الاستحضار القسريّ زائد عن الواقع، ووسواس قهريّ بعيد عن المنطق، ولا مسوّغ له.

ولكنّ.. سرعان ما ينهدّ سؤال قارس: وماذا عنها؟! فتنهار الأسوار التي لم تكد تُبْتَنَى، وأَستسلمُ لجحيم لا يهدأ!

لم أكن على يقين من أنّ غيابه كان انهزاماً بعد فوزي بها؛ كنت أعزّي نفسي بذلك، أو أخاتلها،

ولم يكن قادراً على المواجهة التي لا يجهلها أحد، ولم يكن بإمكاني أن أظهر فائض الإمكانيّات، وإن حاولتُ الجهر ببعضها في البيت، وعلى الأولاد وعليها؛ وقد كانت تستغرب حرصي على أن يكون ذلك متدلّياً من عنقها، أو مخشخشاً في ساعديها، مع أنّها لا تحبّ ذلك، ولا أحبّ، وليس في مقدورنا تأمين ذلك بيسر؛ لكنّها كانت تكتفي بالقليل منه، ومن انعكاسه على نفسيّتها وأدائها رضاً واقتراباً، ولا تستطيع إخفاء الكثير من العجب والحذر والتساؤل؛ تلك الملامح التي لا تنوس إلّا بعد مزيد من الوقت والانشغال والافتعال.. ألحظ ذلك وأكتوي!!

كان يكفي عبور اسمه، أو ما أشبهه، وما يؤدي إليه في أيّ جملة، لتُحشرَجَ مفاوز الروح، وكان يمكن لمرأى أيّ ممّن يمتّون إليه بصلة، مهما كانت واهية، أن يشعل الحرائق، الّتي تُسوِّدَ بدخانها حيطان الصدر وبطانة القلب، ويطلق الحجارة في مسارات

إجباريّة، ويصبح أمر الانشجاج، أو حتّى التعثّر بإحداها متوقّعاً و.. مطلوباً!!

*

«كان يذهلك ردّ فعلها المحايد أحياناً، والكارثيّ في مناسبات أقلّ، ولم تقتنع، على الرّغم من التأكيد الهادئ أو الضاجّ أنّ هذا من أجلك، ومن أجل أن ترتاح، وأن تزيل أيّة شكوك في داخلك ليس لها أصل، ولا أيّ مرجع مادّي أو عاطفي كان؛ بل إنّ ذلك يؤكّد لك أنّ في الأمر ما يجعل الحال مؤثّرة إلى هذه الدرجة، وقد بتّ أكثر اقتناعاً أنّ غيابه الموغل في الغموض كان بسببها، وحفاظاً على سرّ كبير؛ بل احتراماً لها، وتضحية ربّما، وهذا ما يزيدك حساسيّة وقنوطاً واكتئاباً..

ولم تكن لترتاح، حتّى وأنت تبحث في أشيائها القريبة والمخفيّة، وفي أدائها اليوميّ، وعلاقاتها

وصلاتها، وفي هذياناتها وهي محمومة في أثناء النفاث أو أمراضها العارضة أو المزمنة، أو كوابيسها التي تتناوب على لياليها، وتبالغ في التمحيص عن شيء يخصّه، حتّى لو لم تجد شيئاً؛ بل كان يزداد هياجك وكبتك ومحاكمتك بأنّ ذلك يدلّ دلالة كافية، إن لم تكن قاطعة، على قدرة غير عاديّة على الإخفاء والتمويه، تلك التي كان يمتلكها، وباتت تشكّل واحداً من أهمّ ميزاته المهنيّة، كما صار يتردّد أخيراً!!

لقد عاد ذكره خلال الأحداث الطارئة، التي جعلت الناس يتداولون في الكثير ممّا كان ممنوعاً ومقموعاً، بعد أن تقشّر بعضٌ ممّن كان قريباً، وهان عدد ممّن كان يظهر إيمانه، ويبالغ في ولائه تنفيذاً للقول الواثق: وأطيعوا أولي الأمر منكم! وارتفعت عقائر من كانوا والغين في مسؤولياتهم المسيلة لسوائل عديدة، إضافة إلى اللعاب..

كان لا بدّ من أن يذكر اسمه، وشيء عن عمله الغامض المبالَغ في سرّيته، وأسرته التي لم تزر القرية من نحو ربع قرن، وقد عادت إليها لأسباب لم تعد مجهولة. كنتَ تتهرّب من أطراف الحديث، وتترقّب أصداءه، وتتقلّى من ترجّعه، وتنفعل من أجل أيّ شيء، معلّلاً ذلك بالظّروف الضّارية، والقلق المستشري، والخسارات التي لا يمكن إحصاؤها في كل مجال وسمت..».

*

هل كان ذلك من حسن حظّي حقّاً، كما صار يقال، مقارنة مع حالات أخرى كثيرة، تشتّتتْ فيها أسر، وتيتّم أولاد، وترمّلتْ نساء في أعمار وأحوال؟! وصارت تقول أيضاً بأسلوب مبالغ في تزيينه، إنّ عملي لا يقتضي السفر، ولا الابتعاد طويلاً عن الحيّز المحصّن؛ هل كان من حسن طالعي حقاً أن عادت المقارنة بيننا، حتّى لو كانت نتيجتها

لصالحي؟! لكنّ أحداثاً مستجدّة جعلت الأمان في أيّ مكان مستحيلاً، وهذا ربّما من الفضائل النّادرة التي أفرزتها الظروف الطارئة؛ العدل والمساواة حتّىٰ في الخوف والقلق والخسران؛ فلم يعد للعلاقات والتدخّلات مسار محدّد ونتائج مضمونة، إذا لم يكن الأمر معكوساً.. كنت أردّ بهذا، كيلا يستطردوا في المقارنة، ويستزيدون؛ لأنّني لا أريد ذلك، ولا أتحمّله.. كان عديدون يوغلون في التخفّي والتحجّج، حتّىٰ يصبحوا بعيدين عن شظايا المقذوفات المادّيّة والنفسيّة، وكنت أتقاوىٰ وأستعدّ لأيّ طارئ، وفكّرت جدّياً، حتّىٰ لو كان تطوّعاً للدفاع عن الوجود المهدّد في كلّ مكان وآن، مع ما يحتمل ذلك من نتائج نراها يوميّاً، ليس الغياب الأبديّ بعيداً عنها، وكنت أمنّي النفس بذلك أحياناً، لأكرّس فوزي الدّنيوي، الذي بدأ يخبو مع الأحداث الموغلة في دمويّتها، والعمر المسرع إلىٰ الشيب والعطب، نصراً خالداً وبالضربة القاضية، علىٰ من يشكّك أو

يخطّط، أو يرغب بخسارتي وأذيّتي؛ فماذا سيتبقّى لهم بعد أن يغدو اسمي على كلّ لسان، وتنتصب صورتي في كلّ مفترق.. وربّما حملت المدرسة التي ستتوسّع، أو السّاحة الرّئيسة التي ستُنجَزُ، أو الشّارع الرّئيس في المخطّط التّنظيمي شيئاً ممّا يدلّ عليّ، ويبقيني في المقدّمة والخيال والحلم والذاكرة..

لكن.. لم أتخيّل لحظة واحدة أنّ كلّ هذا المجد والعزّ والخلود، سيكون من نصيبه!!

❊ ❊ ❊

الإكليل

حين فكّرتُ في افتتاح محلّ أعتاش منه، بعد عجز ربّ الأسرة، لم يكن لديّ حلّ آخر، أو احتمال أكثر خبرة وجدوى. فلا ينسى الكثيرون ممّن يزورونني، أن يمتدحوا اهتمامي بالورد وأصنافه؛ وقد يبالَغ في ذلك: «هنيئاً لمن يعيش مع الورد وبين أحضانه»، لإثارة اهتمامي وغيرة زوجاتهم.. ربّما؛ أو زوجي الذي يعلّق أحياناً: أكره الحصار حتّى لو كان السور أوراداً! وكثيراً ما اتّهمَ الروائح الفواحة بالحساسية التي قضّت أوقاته، وأوقاتي..، ولم أكن أنزعج كثيراً؛ فهو شيء مميّز لديّ، يعوّض إحساساً بنقص في مكان ما، أو أماكن!

لم يكن حلّ آخر؛ فقد تزوجته قبل أن أكمل دراستي الجامعية، ولم أكمل، ولا مجال للوظيفة «الثانويّة» إلا بجهود استثنائيّة، ولا حول ولا قوّة. بعد أن كبر الولدان، وصارا في حاجة ملحّة إلى ما يعين لإكمال ما حُرمت منه، وكبرت، بدا أنّ الأمر يزداد صعوبة، ويتطلب ربما أشياء عزيزة! ارتضيت العمل بما لا يشترط أكثر من «محو الأمية»، دهشت حين أخبروني أنهم يحترمون المقامات: ثانويّة ومستخدَمة؟! ودهشت أكثر حين اكتشفتُ أنّ في الطّريق إلى هذه الوظيفة عثرات لا تقلّ رفعة وأثماناً عن الوظائف الرفيعة لأصحاب الشّهادات، فاقتنعتُ بعد مرارة وخيبات أنّ ليس لي في رواتب الدولة نصيب!! حتى توهّمتُ – وأشيعَ – بعد حين أنّ الأمر تغيّر؛ وعدني المسؤول الأكبر في المحافظة بأنّ هذا الأمر بسيط، وأرفق الوعد بطلب بسيط، وكنت متردّدة في القبول، بعد أن باتت فواتير المؤسسات المختلفة تتزايد؛

فالمناسبات الأرضية عديدة، والسماويّة أيضاً، والاجتماعية لا تعدّ، ولديّ من المهارة والتنوّع والذّوق ما جعل الكثيرين يقصدون هذا المحلّ المتواضع لبيع الزهور، في هذا الحيّ النائي من المدينة!

تمنّى زوجي أن أقبل، وأفوز بالمَجْدَين، وأنكرَ عليّ ولداي ذلك، وقد وافق هذا ما كنت أميل إليه، بعد أن راودتني رغبة بالقبول انتقاماً؛ لكنّ الطّلب كان صعباً، وجاءني «الظلّ» معاتباً: لقد صُرف ثمن الإكليل نفسه بعدد المؤسّسات الرسميّة في المحافظة، والنّسخ من فاتورتك الوحيدة الّتي لم ترضي أن توقّعي سواها، وحُرمتُ من التعويضات، واحترمتِ الوظيفة؛ أهنّئك على هذه الإنجازات!!

سيقول أشياء أمضى وأقسى بعد مقاطعة الدّوائر الأخرى، وغياب بصمتي عن الأكاليل التي لا تُحصى.. وقد احتشدتْ على جدران صالات الأفراح

المميّزة احتفاء بدخول الأبناء الفاخرين أقفاصهم الذهبيّة.

– لا تندمي يا أمي؛ تكفينا أفراح أفعالنا، وأصداء ما لم نقم به؛ قال وعد، وأكّد عهد أخوه، وقال لأبيه الذي لم يطل بقاؤه بيننا، بنبرة لم أرتضيها، أشياء أخرىٰ!!

*

احترتُ حتّىٰ في سرّي؛ فهل أشكر الله علىٰ ازدياد الطلبات المكلّلة، أم أتمنّىٰ أن يكون مصيري مثل الذين باتوا يشتكون من قلّة الحيلة، وضعف المردود بعد امتداد الأزمة؟! وكانت الشّكاوىٰ المُرّة تَحضَرُ أطراف الأحاديث الأمرّ عن الفقد المؤسي، والغياب الممضّ، والكوّات المخنوقة، والطاقات المهدورة والزمن الرديء..

كنت فيما مضىٰ أنتظر مواسم الخير، وأيّام الخصوبة

الّتي تتكاثف آناء الصيّف، وتتحيّن العطل المحتومة، والتعطّل الطّارئ، واغتنام المناسبات السّعيدة للانشغال الثّرّ. وكنت لا أرغب بانشغالات أخرى، لا تقف عند أمنياتي والأحياء الذين سيتناقصون بحكم الأمر الذي لا رادّ لسلطانه!! وكانت الحال مستقرّة بتواترها المتنافر وإيقاعها غير المنتظم.

*

ما بين تصيّد الفرح العابر وانقضاء الحزن العارض، كان بالإمكان احتمال المسير أكثر، وكان يمكن للفصول أن تمرّ أقلّ وطأة، وأكثر اغترافاً من أعمار وأقدار..

لكن.. لم يكن ممكناً توقّعُ أن يخيّم القضاء في المنطقة على الرغم من التاريخ غير البعيد، والذّكريات غير السّعيدة، ولا تصوّرُ كلِّ هذا الحجم الكارثي على الأقل؛ فيغدو ترقّب الجنازات كابوساً مقيماً، ويغور

الفرح حييّاً في لقاءات مكتومة، واتّفاقات مكتوبة على عجل وخجل في أركان تضيق بفضائها، ولا تفيض بحضورها الّذي لا يزيد على الأهل والمقرّبين!!

تخرّست هنهنات الأعراس، وبهتت أو غابت زينات العرائس، وتهدّلت زغردات الفاقدين، واحتدّت ولولات الثكالى، ولم تغب أوراد أمّ الوعد عن المواكب السيارة، ولم تهن همّتُها كما لم ينُسَ اهتمامها. ولم يكن وارداً أن تهتمّ لقول الحاسدين، ونظرات الكظيمين حتّى في هذه الأوقات، من قلّة المراجعين، وشحّة الموارد، ولم يكن ممكناً، وليس هذا من طبعها!!

صار استحضار الأكاليل متعباً، وغدا مرهقاً تزيين الحلقة واستظهار الاسم. ولا بدّ ممّا ليس منه بدّ؛ لم يعد التفنّن مهمّاً ولا الوقت قضيّة، ولا عطلة للورد، ولا فرص للمناسبات السّعيدة، ولا الأجر يُنتظر.

الواجب يَفرِض، والمناسبات الطّارئة اعتيدت، وتوزّعت المواكب المكتظّة الضاجّة القرىٰ والبلدات والحارات، وتكاثفت ودارت!!

الحماسة لم تفارق اللّحظات، واللّهفة دائمة التوفّز للقيام بالواجب؛ فالخطر محدق، والمصير علىٰ المحكّ، والنّفثات محمومة، والرّؤىٰ تغصّ في تقصّي القادم، وانتظار الجثمان أو بقيّة منه أو أثر، قد يطول.. تهيم الأفكار، ويوغر التوجّس الأنفاس من أحداث تتسارع، وأخبار لا تتمايز عجالاتها، أو تنوس!!

*

حين جاء طلب وعد، وكنت أحضّر إكليلاً لحفرة طازجة.. قال أكثر من صوت: كلّمي واحداً من زبائنك الجدد، ليؤجّله إلىٰ حين؛ كما فعل منْ تَعْلَمين، أو يفرزه إلىٰ مكان آمن!

قلت في سرّي مع ضجيج دقّات قلبي، وانخضاض

في أعضاء الداخل: لم يعد مكان آمناً. وربّما قلت أكثر، على الرغم ممّا كنت فيه، عن أصحاب الفواتير الّتي لم تعد تخصّ الورد ولا المناسبات الوطنية، وقد تضاعفت قيمها الآن، كما توارد إليّ بمرارة من بعض مراجعيَّ المُحْدَثين، الّذين لا يملكون ما يبعد عن أبنائهم احتمالات قاتمة، أو يجنّبهم مواقع حارّة تتكاثر، ولا يرتضون سمعة فاضحة، ويقومون بما فعل وعد، وربّما يفرحون به، ويسعون إليه باندفاع وتوق.

ولم يكن محدّثي يعلم، ولم أكن أدري، ولا يُقدِّم هذا ولا يؤخّر، أنّ وعداً أعطى مُبَلِّغَهُ الدَعوة للالتحاق بحماة الديار هديّة، وقال: لستُ أعزَّ من أحد، وهناك ما هو أعزّ وأغلى! ولم يكن ذلك غريباً مع وجود من تقدّم بنفسه، وليس من عداد المطلوبين!

في آخر مكالمة، وكنت منهمكة في تأمين طلبات تتكاثف، وكانت الشّفَرات الحادّة توالي فعلها في

داخلي، قال وعد: أمّي.. إذا جاءكِ الخبر اليقين، فلا تتأخّري؛ ولا تتغيّبي عن المحلّ، الورد لا يعطّل، ولا تغيّري عاداتك، وكلّلي بنظراتك الحانية، وبأنفاسك الحرّىٰ.. ليس الآخرون أعزّ من ابنك!

أردّد ذلك الآن، وأتعثّر، وعهد يساعدني محموماً، وأنا لا أستطيع التمييز إن كان الشّوك في يديّ، أم في الورد الّذي يختلج بين أصابعي، أم هي الكبد التي لم تعد تتّسع لها الأرض!

❊ ❊ ❊

الأعظم!

توقّفَتْ..

كنت أحاول هدهدة أنفاسها؛ وماذا عن أنفاسي؟!

هدأتْ؛ يبدو أنّني قلت كلاماً أفاد في المهمّة التي ظننتها مستحيلة.

كنت أنظر إليها قلِقاً من توقّع ما ينهدّ من عاصفة صراخ، أو يتفجّر من نحيب غاصّ، كما يحدث في كل مرّة، منذ حلّت الكارثة.

وماذا عنّي؟! هل كنتُ أتلهّى بمتابعتها وأنشغل

بحالها، عمّا يمكن أن يتشقّق من كياني، الذي يهدّني صدىٰ تصدّعاته المتوالية؟!

*

اعتاد أن يتحدّث إليها في ما يراه خارج البيت، مهما كان عابراً أو صغيراً، وحتّىٰ لو كانا معاً؛ يتناقشان حوله، يتشاكسان، وقد يتّفقان في تسجيل النّتيجة لصالح أحدهما، ويتضاحكان؛ بات الأمر عسيراً منذ بداية الأحداث الضاريّة علىٰ امتداد البلد؛ فالوقائع مؤسية، والتفاصيل شوكية؛ وغدا ذلك أكثر عسراً، بعدما صار غالباً ما يخرج منفرداً، واقتصرت خطواتها علىٰ طريق المدرسة القريبة من البيت؛ وجاء ذلك بعد انكفاء وانكماش ما أفادا في شيء، بعد أن تقاطر إليها المواسون، أو المتسائلون المشكّكون؛ وقد حرص علىٰ أن يكون حاضراً لتفادي أيّ ألغام، يمكن أن تنفجر في أثناء الأحاديث أو الأسئلة أو الرّجاءات؛ وصارت مشاويره تخفيفاً عنه، وإن كان

لا يلوي على شيء، ولم يجد في ما يرويه، آن يعود بعد وقت لا يطول، الكثيرَ من المفيد، حتّى حين بدأ يخترع مشاهدات، أو يزيد على حوادث بعض التفاصيل الحكائيّة التي يخمّن أنّها ذات جدوى.

*

«عبرتُ المقام الذي أمرّ جواره كلّ حين، من دون أن يترك أيّ أثر؛ نحن صديقان، كنت أقول لها وللكثيرين الذين يعتبون أو يغضبون.. وكنت أقاطع بعضهم قصداً، وهم يتعبّدون في محرابه، أو أتغافل عن تقواهم وحركاتهم المعبّرة، وما تثيره في نفسي من أصداء عبثيّة.

أتعامل وإيّاه الندّ للندّ، لا ألومه، ولا يُعثِرُني، ولا يتدخّل أيّ منّا في شؤون الآخر، وهذا لا يقلّل من احترامنا المتبادل.

أضحك بعد أن أقول ذلك وسواه، حين يثورون

من جدّيتي، وينفرون من جرأتي ويبتعدون، ولا يلبثون أن يعودوا، وأعود.

بالأمس.. كان الوضع مختلفاً».

لم يكن متأكّداً إن كان كلامه لم يخرج من شفتيه، تمنّى ذلك، وإن راودته رغبة الكلام المسموع، ليسمع ردّ فعل يحتاج إليه.. ربّما!

*

لم أكمل كلامي؛ هذه المرّة، نشجتْ بعنف: ليتني مثلهنّ، لاطمأننت أنّها صارت في مأمن، ولو تحت التراب!

واستطردتْ في عرضها المجرّح:

أين هي الآن؟! جائعة، عطشانة، بردانة، مجروحة، موجوعة، مربوطة، تضرب، تعذّب، تصرخ..

كنت أرجوها أن تتوقّف، حتّى لا تصل إلى الذّبح،

فتنتفض كأنّ السكين تحتزّ رقبتها، وأنتفض، أو خوفاً ممّا هو أبعد من ذلك؛ وهل هناك ما هو أقسى؟!

*

«اللهمّ أجِرنا من الأعظم!»

اللّازمة التي كان أبي ينهي بها دعاءه الصباحي، وتبتّلاته التي تختلج في أنفاسه بعد كلّ مصيبة تحلّ، وما أكثرها في بيئة تلهث وراء الماء والقوت والكساء.. من دون أن تغفل أنّ كلّ شيء يهون أمام الفضيحة!

كنت أفكّر في ذلك محاولاً الاكتفاء بتصوّر الأفعال الجرميّة المعروفة، متمنيّاً أن تقتصر عليها في شكاواها الملقاة في الفضاء؛ علّها تتشاغل بها - كما أفعل أنا- عن تصوّر «الأعظم»!

*

«أيّ منطق يعود؟! وأيّ أفعال تستشري؟! وأيّ أفكار تسود؟! وفي أيّ عصر أو زمان نعيش، حتّىٰ يصبح الحديث عن الموؤودة، وسؤالها عن ذنبها الذي أودىٰ بها أكثر يسراً وقبولاً!!

السؤال في حدّ ذاته جزء من البلاء الأعظم؛ خوف أن تصل أيّة إشارة أو تلميح إلىٰ ذلك المعنىٰ.. وكنتَ تستطيع أن ترىٰ انعكاسه في عيون من يسأل عنها، أو يدعو لها بفكّ الأسرِ، وقد تنفلت كلمات تشي به في أثناء الحديث عن حوادث مماثلة، جرت غير بعيد في الزمن والحيثيّة؛ كنت تخاف أن يظهر منك ما يدلّ علىٰ أمنيتك أن يأتيك خبرها، فتقوم بالواجب، وتعضّ علىٰ جراحك وأعصابك، وينتهي الأمر، أو ينوس أمام وقائع أخرىٰ، سيجد النّاس فيها علىٰ الأقلّ الكثير مما يتعلّقون بأخباره استشهاداً أو إصابة أو اختفاء، مع تفاصيل ذلك ومبالغاته وتكهّناته.. أمّا أنت فيمكن أن تدقّ همّك في جرنك، لتتقوّت منه، كلّما أَفَقتَ من سكرتك، لتدخل في غيبوبة أخرىٰ..

أمّا الآن فلا حيلة لك ولا دليل، ولا أمل لك إلا بمن هو قادر على أن يحميها منهم؛ ما الذي يردّهم عنها، وما الرّادع أو المانع؟!»

*

(أرجو أن يؤجّلوا فعلتهم، أو تموت بأوّل صفعة!)

يحاول التخفيف من جديد؛ فهناك من عاد، وآخرون وصلت أخبارهم، ما زالوا أحياء، يحفرون الأنفاق، ينقلون الذّخائر، يجهّزون العبوات التي قد تقتل أقرباءهم، يخدمون ويُذَلّون، ويحملون عاهاتهم المستحدثة، وأمراضاً مستجدّة ومتجدّدة.. وأستبعد أيّ حديث عن «السبايا»، سيستدعي استطرادات قارسة، وأنا على يقين من أنّ ذلك المشهد الذي سمعتُ عنه مرّات، وقد تكرّر في أكثر من موقع، لا يغيب عن تصوّراتها: طوابير من عاريات يُقسرِنَ على العبور أمام حشد متنوّع مستثار!!

ولم تكن لتفرح حين تتمنّى لها إحداهن أن تكحّل عينيها بمرآها، وتصمت، قبل أن تقول في سرّها: ليتها ماتت، ليتها تموت!

كما كنت أظنّ، لأنّني أعرفها، وتأكّد لي ذلك ممّا قال أولادها الذين رافقوها إلى المزارات جميعها؛ هي التي لم تكن تنقطع عن بعضها؛ لم أكن أرافقها، ولم أفعل الآن، وقد كانت تتحاشى الحديث في ذلك أمامي، رغم أنّني أقدّر مشاعرها، وعواطف الذين لهم قناعات مشابهة، ولا أنزعج إلا ممّن لا يحترم رأي الآخرين، ولا يقدّر أفكارهم وأفكاري..».

*

بالأمس كان يتحيّن فرصة العبور أمامه، كان عديدون يدخلون ويخرجون، ازداد روّاده في الآونة الأخيرة، وتكاثفت الخطا حوله؛ لم يكن الأمر ليمرّ من دون اهتمام وأسئلة لا تظلّ طويلاً بلا إجابات؛

وإن كان التساؤل عن الجدوى والنتيجة لا يحمل الكثير من المسوّغات؛ «بتّ أفكّر في ذلك، من دون استهانة أو استخفاف. تردّدتُ في الدخول، لا خجلاً ممّن قد يراني، ويستهزئ أو يستغرب؛ لا يهمّ ذلك؛ لم يعد يهمّ؛ بل لأنّني غير قادر على تحديد فحوى الرّجاء الذي سأرفعه إلى مقامه؛ هل أترك له الخيار في التّحديد، حين أردّد أمامه ما كان والدي يقول بحرقة وتفجّع: «اللّهم أجِرْنا من الأعظم؟!».

❊❊❊

بقايا ندم

لا أنكر أنّني فوجئت بردّة فعله التي استمرّت طويلاً، وساورتني الشكوك، وكادت الحال تتحوّل إلى اكتئاب مزمن، بعد أن قال الطبيب: لا بدّ من استئصال الرحم!

هل حسب أنّني وراء ذلك؟! أو أنه بالغ في أمر الرفض، ليأتي بأخرى ولود؟!

كنت أعرف أنه يحبّ الأولاد، وكان مصرّاً على أن أستمرّ في الإنجاب، على الرّغم من التّحذيرات الطّبّيّة الّتي جاءت من أكثر من مصدر تفادياً لخطأ التّشخيص، وكنّا نختلف على ذلك، وأقول: احمدِ الله يا رجل على ثلاثة الصّبيان/ رزقتِنا، وادعُ أن

يسلّمهم، وأن يساعدنا على أن نربّيهم بأمان، ونعلّمهم كما يحبّون!!

*

حين سألتِني عن رأيي بالأولاد دهشتُ؛ قلت بسرعة ولهفة: دزّينة!!

قالت: أمعقول أنت يا..؟! أيفكّر رجل من هذا الزمان بمثل ما تفكّر؟!

قلت: البلد من سيبنيه، ومن سيدافع عنه؟!

قالت: وهل أنت متعهّد الحكومة؟! انظر إلى الغلاء والضائقة العالميّة، وحاجاتنا التي لا تنتهي؛ وماذا عن حاجة الأولاد؟!

وأضافت بعد قليل من الشّهيق، وقبل أن أردّ:

- ألم تسمع بسياسة تحديد النّسل، وأنّ الأسرة قليلة العدد أكثر سعادة وألفة؟!

قلت: تحديد النسل مهمّ في الهند والصين؛ أمّا أنا فأحبّ الحضن الملآن، والركن الدافئ من الأنفاس والمشاعر الودودة.

كانت تسكت بامتعاض وارتصاص يظهران في معظم المعالم الباردة.

*

حين بدؤوا يفرّون من العشّ تباعاً للالتحاق بالدراسة المدنيّة والعسكرية، بدأت أقرأ علائم الانقباض ذاتها. ربّما تأخرتُ بالإفصاح، لكنّها أقرّت، بعد أن صارت أوقاتنا مديدة، وأفكارنا في أمكنة أخرى، نلاحق هذا، ونستفسر عن الآخر، بأنّ للفراغ حصاراً مذلّاً، على الرّغم من أنّ لكلّ منّا عمله الوظيفيّ، ولها عملها البيتيّ الّذي لا ينتهي، ولديّ ما يشغلني من هواية واهتمام.. زيادة على متابعة الأخبار والعلاقات والتّحرّكات والأحداث المستجدّة، الّتي تتوالى في أكثر من بلد ومنطقة!

ولم أردّ إزعاجها، وتذكيرها بما كان من مواقف وخصومات، بعد أن كان للقدر القول الفصل في توقّف إمكانيّة الإنجاب!!

*

أشهد له بِبُعد النظر؛ يمكنني أن أعترف أمامه بذلك، لكنّ ماذا يفيد؟! هل أرفع معنوياته التي لا تحتاج إلى من يقوم بهذا؟! وثقته بأنّ الأمور آيلة إلى خلاص مجدٍ، لم تفتر، على الرغم من الضّحايا والخراب، والجوّ الغاصّ بالزّفرات والسّموم والشّرور..

«أقول: أين كان كلّ ذلك؟!

وتقول: لعلّ في خروجها الآن خيراً من بقائها كامنة أكثر!

كنتَ تقول: لن يهدؤوا، لن يتركونا نبني ونتعلّم، ونرتقي؛ لن يتورّعوا عن تخريب كلّ شيء في

لحظة واحدة؛ لا ألومهم، ذلك مشروعهم، وتلك غاياتهم، لكنّني أعتب على من يسعى إلى ابتناء الحجر وزخرفته، ويهرع إلى الذّرا منافساً مقامات الأولياء في اجتراح الموالد والموائد والأتباع.. مع قراءتي بأنّ ذلك ليس غريباً على بني البشر. في الوقت الذي يسعى فيه آخرون في الوطن إلى بناء العقول، وتدعيم المساند والمتكآت.. لولا ذلك لانهار كل شيء بأسرع ما تمنّوا، وما جرى في أمكنة أخرى..

أشهد أنّك قلتَ لابنك الذي عبّر عن رغبته بصيد النّجوم والعلوم: كما تشاء يا ولدي، ولعلّك تحقّق رغبتي، وتزيد في رفعة البلد، في الوقت الذي كنت فيه أعارض وأبكي:

– لماذا لا تذهب إلى الجامعة كأخيك؟! سيلحق بنا همّ العسكرية!

– ليس همّاً يا.. هي مسؤوليّة، وإذا لم نخترها نحن، وتَجنّبها الآخرون، فمن يحمي الوطن ويدافع

عنه؟! إذا كان الجميع سيتبع التّقتير؛ ولدان على الأكثر؛ حتّى لو أنثيان؛ هل سنأتي بجنود مرتزقة؟!»

وأذكر أنّي كنت أتلهّف إلى بنت تحمي آخرتنا، كما كنت أقول، وكان يبتسم حين يُبَشَّرُ بالذّكر، لا لأنّه يكره الأنثى:

– هذا أهون من أن أقنعك بأن تتطوّع ابنتك، فيما لو جاءت!!»

ويقول الآن: أنا مستعدّ أن أذهب بشيبتي، لو كنت أفيد في ذلك المضمار، رغم أنّ ما أقوم به في هذا الحيّ، وفي هذه الظروف، وما تقومين به أنت أيضاً، ليس يسيراً، لكنه ليس كافياً.

يقول ذلك وهو ينظر إلى البعيد، بعد أن أقنعتُه بأن نجلس على الشرفة ذات الإطلالة المديدة، الّتي كان يقول عنها: من أجله..

وأضاف: من أجل أن تبقى هذه الإطلالة التي

كان يحبها، وذاك الأفق المشرع؛ ويستطرد بعد قليل من الزّفير: أما من خبر عن سعيد.. بات وحيداً؟!

*

لا أصدّق أنّنا عبرنا كلّ تلك اللّحظات القارسة الّتي تلت الخبر الصّاعق، تترامح صور محمود على الأكفّ، هو الذي أنهى خدمته الإلزاميّة، ويداوم في وظيفته المدنيّة، كنت سأقول لها: أرأيتِ أنّ مصدر الخطر لا يستطيع أحد أن يحّدده، لو كان ما يزال في العسكريّة، لقلنا تلك معركة وجبهة؛ لكنّه كان في الطريق إلى عمله. هل كان مقصوداً لشهادته وتميّزه؟! ربّما، كان ذلك مثار فخار لنا، ومبعث إحساس بالخسارة كبير، والمؤثّر الواخز أنّه لم يكن في أحد خطوط التّماس، وقد تكاثرتْ، ولم يكن يحمل سلاحاً، والكثيرون صاروا حاملين له بفائدة أو من دونها.

لم يهدِّد ولم يتوعّد، ولم ينشغل بما انشغلوا به، ربّما كانت له نشاطاته الّتي لا نعرفها، والأكثر جدوىٰ، كما كان حرصه في مختلف شؤون حياته، ولا نسأله عنها؛ لم نعتد أن نسأله؛ ثقتنا بهم لا تحدّ.

كانت تقول: تلك تربيتك! ولا أنكر أنّها كانت تفتخر وتعتزّ؛ لأنّها كانت تضيف:

– معكَ حقّ، كان معك حقّ، مثل هذه الذِّريّة، جميل أن تمتلئ بها ساحات الوطن..

❊

وبتُّ أقول الآن وأقرّر: الحقّ كلّه كان معكَ؛ فها قد ذهب اثنان، ولم يبق سوىٰ.. أحسّ أنّك تودّ مقاطعتي، لتقول: لو كانوا دزّينة، لما بخلتُ بأيّ منهم، وما تردّدوا.

لكنّ ذلك لم يكن أقلّ وقعاً أو أكثر من خبر أخيه، الذي سلك الدّرب الأقرب إلىٰ المجد من طرفيه،

فكان له الفوز الأكبر إلى جوار أخيه، وكانت لنا المواساة والعزاء بالوطن الذي بقي حيّاً..

أشعر الآن ببعض الأسى الإضافي، إن كان مكان يمكن أن تتضاغط فيه المشاعر من ندم وتبكيت: لماذا لم تتزوّج من امرأة ولود؟! أو لماذا لم أدفعْك إلى الزواج ثانية وثالثة.. لتحقّق رغبتك؟! الوطن يحتاج إلى ذلك، البلد يلزمه حماة حقيقيون كثر، بتّ مقتنعة بهذا، ويحتاج إلى بناة حقيقيين بعد كلّ هذا الخراب؛ لكن لن أقتل نفسي، كثرة الفاقدين تخفّف عنّي وعنك، وحرقة القلب على واسطة العقد وأوّله في اتّقاد..

لن أقتل نفسي؛ بل أفكّر في ماذا يمكن أن نفعل ويكون الأجدى. صحيح أنّ ذهابنا إلى الدوام بطولة، بصرف النظر عما نقوم به هناك. آه.. أيّ زمن هذا؟!

كنت أقدّم أكثر من ذلك في الأحوال الّتي كانت

عاديّة؛ ما يزال سعيد في موقعه، لم يتقدّم بطلب تسريح بعد أن صار وحيداً، لن أطلب منه ذلك، ولن يرضى، وأبوه في موقع آخر.. وعليّ، كي أتخلّص من بقايا ندم، أن أعطي الآن أكثر!!

❊ ❊ ❊

الفهرس

وردة آخر الوقت	٥
طواف..	١٣
وَجدْتُها!	٢٣
صيّاد!	٣١
رغبة!	٤١
رجلٌ مثله!	٤٧
زيارة	٥٩
بلا معنى	٦٩
طالع!	٧٧
الإكليل	٨٥
الأعظم!	٩٥
بقايا ندم	١٠٥

غسان كامل ونوس

- مواليد ٢/ ١/ ١٩٥٨- صافيتا- الصليّب.
- مهندس مدني من جامعة تشرين- اللاذقية منذ عام ١٩٨١م.
- عضو اتحاد الكتاب العرب منذ مطلع عام ١٩٩٣م.
- حاصل على جائزة محمود المسعدي في القصة القصيرة من مركز الوطن العربي للنشر والإعلام (رؤيا) في الاسكندرية – مصر عام ١٩٩٠.
- حاصل على جائزة إيبلا للشعر في إدلب بسورية عام ١٩٩٢.

■ **الكتب الصادرة:**

■ **في القصــة:**

١- هامش الحياة.. هامش الموت / اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩١

٢- الاحتراق / مطبعة الشام - دمشق ١٩٩٢

٣- ظلال النشوة الهاربة / وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩٤

٤- دُوار الصدى / دار الحوار - اللاذقية ١٩٩٧

٥- أحمر .. أبيض / اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩٨

٦- العائد / مطبعة إياس - طرطوس ٢٠٠٠

٧- مفازات / اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٣

٨- خطايا / وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٣

٩- في الزمن الراجع / عروة للطباعة - طرطوس ٢٠٠٧

١٠- في الضفة الأخرى / دارشرق وغرب - دمشق ٢٠١٠

■ في الروايــة:

١- المدار / وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩٤

٢- تقاسيم الحضور والغياب / دار الحارث - دمشق ٢٠٠٢

٣- أوقات برية / دار إنانا - دمشق ٢٠٠٦

٤- المآب / اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠١١

■ في الشعــر:

١- تضاريس على أفق شاحب / مطبعة إياس - طرطوس ١٩٩٦

٢- موال الأرق / اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٧

٣- حديث الروح / اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠١٢

■ كتــابــات:

١- حالات / دار شرق وغرب - دمشق ٢٠١٠

٢- موضوعات ومواقف / دار إنانا - دمشق ٢٠١٠

٣- في الثقافة والأدب / دار شرق وغرب - دمشق ٢٠١٠

٤- قريباً من القلب / دار شرق وغرب - دمشق ٢٠١١

٥- عذراً سورية / دار شرق وغرب - دمشق ٢٠١٣

■ **العنوان:**

□ بريد رأس الخشوفة – صافيتا – طرطوس – سورية

أو

□ طرطوس – فرع اتحاد الكتاب العرب – ص.ب / ٣٣٩/

أو

□ دمشق – اتوستراد المزة – اتحاد الكتاب العرب – ص ب / ٣٢٣٠/

بريد إلكتروني:

Ghassan.wannous@gmail.com

هاتف:

■ دمشـــــق : 011 6117242

■ منزل صافيتا : 043 805158

■ خلـــوي : 0933802693